جزيرة العرب

جان جاك بيزبي

Bibliotheca Alexandrina
0258837

جزيرة العرب

جان جاك بيربي

جزيرة العرب

تعريب

نجدة هاجر
دبلوم في العلوم السياسية

سعيد الغز
مجاز في الجغرافيا

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الأولى
بيروت، حزيران ١٩٦٠

توطئة

منذ بضعة اشهر عربنا للكاتب السياسي الفرنسي جـان جاك بيربي المتخصص في الشؤون العربية والاستاذ المحاضر في معهد الدراسات العليا للادارة الاسلامية كتاباً يحمل اسم « الخليج العربي » وها نحن نقدم الآن كتاباً آخر للمؤلف نفسه هو كتاب « الجزيرة العربية »

ان هذين الكتابين الفرنسيين عن الشرق العربي ليسا وحيـدين من نوعهما بل هما قطرتان من غيث منهمر . وازاء هذا الفيض الزاخر الذي يتدفق من مطابع الغرب لا بد للقارىء العربي من ان يتساءل عن سر هذا الاهتمام البالغ الذي يُبديه كتّاب الدول الغربية وعلماؤها ، بقضايا الشرق عامة والشؤون العربية خاصة كما ان عليه ايضاً ان يتساءل اذا كان من المصلحة القومية ان يطلع على كل ما تحتويه هذه الكتب من آراء ومعلومات ..؟

منذ حملة السويس الفاشلة شعر عقلاء الغرب ان الأساليب التي درج عليها ساستهم قد عادت على شعوبهم بالشر الوبيل كما لحظوا ايضاً ان جهلاً مطبقاً لاوضاع البلاد العربية يخيم على عقول المواطنين عندهم ؟ ولو ان العلاقة بين اوروبا الغربية والمشرق العربي غير ذات اهمية بالنسبة

لهم لهان الامر . ولكن الازمة التي حلت بالصناعة الاوروبية عندما توقف البترول العربي عن السيلان بعد نسف الانابيب في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ، وتعطيل قناة السويس ، أفهمت كل اوروبي مهما كان مستوى ثقافته مدى ارتباط الاقتصاد الغربي بصحراء العرب حيث يكمن القسم الاكبر من احتياطي البترول في العالم . بسبب ذلك كله بادر كتاب الغرب لا سيما المتخصصون في العلوم السياسية والاقتصادية والتاريخية الى احوال البلاد العربية يشرحونها في دراسات موضوعية لاخوانهم المواطنين كي يبنوا جسراً متيناً للتعاون الحق بين الشعوب .

ونحن العرب لا يمكننا مطلقاً ان نبقى في مغزل عما ينشر ويكتب عنا بعد ان احتلت القومية العربية مكاناً مرموقاً في المحافل الدولية ، وان تعذّر علينا ان نُرسي علاقاتنا بالامم والشعوب على قواعد متينة . كما ان هذه المؤلفات بما تحويه من تحليلات منطقية واحصاءات دقيقة هي غذاء فكري لنا لا يعوّض قل مثيله بين الكتب الصادرة باللغة العربية اصلاً .

لذلك وجب على رجال الفكر العربي الذين تيسر لهم الوقوف على تيارات الفكر الغربي ان ينقلوا الى اخوانهم العرب الكتب والمؤلفات التي يدبجها رجال الاختصاص عن ديارهم كي يوسعوا ثقافتهم القومية ، مع العلم بان الاختيار في هذا المضمار عمل من الصعوبة بمكان . وهنا يجب ان يلعب الضميرُ القومي لدى المترجم دوره كي يصون مصلحة أمته التي اليها ينتسب ويوفق بين ذلك والامانة العلمية التي تفرض ابقاء النص على ما هو عليه دون تحريف .

وعملاً بهذا النهج نقلنا كتاب « الخليج العربي » الى العربية ، وألحقناه بهذا الكتاب الثاني « الجزيرة العربية » .

قد يظن بعض القراء العرب ان لديهم ما يكفي من المعلومات عن القسمين الجنوبي والشرقي من الجزيرة العربية حيث يكافح اخوان لنا في العروبة ضد الاستعمار في عدن وحضرموت ومسقط وعمان والبحرين

والخليج .. ونحن لا نبخس اي امرىء معلوماته : وانما نطلب منهم غير مأمورين ان يقرأوا ما كتبه جان جاك بيربي عن هـذه المناطق المقفلة التي عزلتها القوى الاستعمارية عن شقيقاتها العربيات وعندئذ سيدركون سعة الآفاق التي يفتحها هذا الكتاب امام عيونهم .

ان كتاب « الجزيرة العربية » دراسة تحليلية شاملة لماضي هـذه الديار وواقعها مدعومة بالمستندات التاريخية والبيانات الاحصائية . والمؤلف فيها لم يترك شاردة ولا واردة . وقد انتقل بنا بعد اعطائنا فكرة سليمة عن طبيعة هذه الارض من المملكة العربية السعودية، التي شهدت ولادتها بعد الحركة الوهابية الى اليمن العربية السعيدة يمن مأرب وسبأ التي تتنازع اليوم على الحدود مع البريطانيين الذين نزلوا عنوة وغصباً في عدن ، ومن ثم الى حضرموت والمحمية الشرقية ، الى مسقط وعُمان حيث يواجه المناضلون الاباةُ في الجبل الاخضر قوى الاستعمار الذي يريد ان يذلهم ويستعبدهم . واخيراً يحطُّ رحاله في الكويت الاسطورية التي سلبت عقول المراقبين بانقلابها السريع . وهنا لم يداور المؤلف ولم يراوغ بل اوضح كم يستفيد الغرب لاسيما بريطانيا من خيرات الكويت الدافئة ، مؤكداً ان الانفصال الاقتصادي بين الامارة الغنية والمملكة المتحدة اذا حصل يهدد الكيان البريطاني في الصميم .

ونحن الذين عربنا هذا الكتاب القيم نعتقد ان الواجب القومي يفرض على كل عربي ايّاً كان مستوى ثقافته والى اي بلد انتسب ان يقرأ بامعان وروية فكر ، ما جاد به جان جاك بيربي كي يحصل على احدث صورة لاوضاع الجزيرة العربية التي تملك من القوى الروحية المنبثقة عن الاسلام والامكانات العـادية المنبجسة من احواض البترول معيناً لا ينضب .

ومتى فعل ذلك عرف المستقبل السعيد الذي ينتظر بلاده في معارج التقدم وأيقن ان السواعد البناءة في أمته لا بد من ان تهدم بمعاولها

حصون الاستعمار الباغي والرجعية الذميمة والتخلف البغيض .

فلنقرأ كتاب « الجزيرة العربية » .

ولنتذكر دوماً ان لليل الاسود المديد نهاية

وان الصبح ليس ببعيد

المعربان

في ١١-٤-٦٠

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز شرف
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب
الإسكندرية

تقديم

بقلم : بيار روندو

منذ امد بعيد والجزيرة العربية تدغدغ مخيلة الغرب : منذ الوقت الذي قدّم فيه الملوك المجوس هداياهم حتى الوقت الذي اخذت فيه الناقلات الضخمة تعبّ البترول ، منذ ولادة الاسلام حتى التطور المذهل العجيب للمملكة العربية السعودية ، والجزيرة العربية تبدو امام ناظرينا بلاد السراب : لقد احببنا ان نعبرها في نطاق الفكر والثروات والسلطان الموارد الوهمية المحيّرة ، وفي مناظرها الجليلة التي تضفيها الاحجار والرمال ، تتتابع في عصرنا الحاضر صورٌ محاطة بهالات من القوة والغموض ، صور امثال لورانس وابن سعود وفيلبي واوناسيس .

ولسنا نعنى بالسراب أحداث السنوات الاخيرة . ان الاشهر الماضية القريبة تشهد بذلك والجزيرة العربية اليوم ، في نطاق البترول ، تعتبر احدى المناطق الرئيسية التي تزوّد اوروبا بحاجاتها من هذه المادة الهامة ، ولذلك تعلّق الدولة في سياستها على هذه البلاد الصحراوية في اغلبها ، اهمية متزايدة ، والاعتبارات الستراتيجية ليست دائماً غريبة عن هذا الاهتمام المقلق : وتسبغ النزاعات حول واحة البريمي ، وفي جبال عمان ، وعلى حدود محميات عدن ، تلك البقاع النائية اهمية خاصة تتخطى بكثير

المظهر الباهت للصراع . واخيراً كان اسهام الملك سعود في المشروعات الاميركية لتطوير الشرق الأوسط ، عملاً لفت الانظار في المحافل الدبلوماسية الى الدور الذي يمكن ان تقوم به دول الجزيرة العربية على الرغم من تركيبها القديم ، تركيب القرون الوسطى ، بين الدول الحديثة .

ان هذه العوامل المعقّدة كلّها تستأثر ولا شك بانتباه الرأي العام الفرنسي ، ولكن شؤون الشرق عامة هي في اذهان الفرنسيين روايةٌ خيالية غريبة اكثر منها موضوع علمي للبحث الدقيق . لقد كانت قضايا الجزيرة العربية في المدة الاخيرة موضوعاً للبحث والنشر المزدهي بالالوان في الصحف والمجلات . ولكن ذلك كله ليس بداية للعمل الذي من شأنه ان يسهل المعرفة الدقيقة الكاملة لهذه القضايا وما يكمن وراءها . ان نقصاً كهذا يزداد وضوحاً عندما نعلم بأن الاقتصاد الفرنسي ، وحياة فرنسا نفسها ، مرتبطان الى حد بعيد بالعالم العربي. ويكفي ان نذكر، للتدليل على ذلك ، حاجة فرنسا الماسة الى بترول العرب . وعلى الرأي العام الفرنسي منذ الآن كي لا يتعرض الى مفاجآت مؤلمة ان يُعير اهتماماً خاصاً رصيناً لقضايا هذه المنطقة من العالم .

وهذا الكتاب الذي يضعه السيد بيربي بين ايدينا اليوم يتيح لنا ذلك . إنه يشكل ، في الواقع ، اول دراسة موضوعية كاملة باللغة الفرنسية عن مجموعة القضايا المطروحة في الجزيرة العربية . انه يقدّم الى الجمهور الفرنسي ، العنصر الرئيسي اي المستندات التي كانت تنقصه حتى اليوم، وهذا النقص كان يبرّر الى حد ما ، كما يجب ان نعترف ، الصفة العفوية الخفيفة ، او الخفيفة فقط ، لردود الفعل الفرنسية على المشاكل التي كان من العسير على الفرنسي في خضم المصالح البترولية ان يرى اسّها ودوافعها الحقيقية .

اننا نغتبط اذن ، عندما نلاحظ ان ثغرة قد سُدّت . والسيد بيربي الذي وقف نفسه منذ عدة سنوات على التحري العميق عن جذور القضايا

في الجزيرة العربية ، يستحق اعترافنا الكامل بجميله لا سيما وانه قد تحدث بكثير من العلم والعناية والموضوعية والنزاهة ، عن هذا القطاع الذي كنا ولا نزال نعلم عنه الشيء الضئيل . قليلة هي المؤلفات التي يمكنها ان تأتي في وقتها المناسب ، بمثل هذه الدقة ، وتُعرَضُ ، ليس فقط على الاختصاصيين في شؤون العالم العربي بل على كل مراقبي السياسة الخارجية ، والمعنيين بالاقتصاد والاعمال الكبرى ، وبصورة ابسط على جميع الفرنسيين الذين يشغلهم مصير الوطن ومصالحه الحقة .

بيار روندو

مدير مركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية

مقدمة

ان بترول الجزيرة العربية يدير محركاتنا ويدفيء بيوتنا ، والاسلام الذي وُلد في الجزيرة الكبرى يشكل عنصراً فائق الاهمية في سياستنا الوطنية والدولية ، والغروبة التي أخذت اسمها من هذا المكان تُعتبر سبباً لعدد كبير من مشاغلنا ومشاكلنا . ومع ذلك فأننا ما زلنا بعيدين عن شؤون الجزيرة العربية كأنّها لا تخصنا بشيء .

وبعد البحث الطويل عن المستندات المتعلّقة بالجزيرة العربية ، انتهيتُ الى كتابة هذا المؤلف . منذ بضع سنوات ، وانا الاحظ ان عبارة « شبه الجزيرة العربية » يتبعها حتماً كلمة « بترول » . والى هذا التوارد الذي لا بدّ منه يجب ان تُضافَ صورةُ البدوي القاسي ، الرحالة الذي لا يتعب بين الرمال ، او المحارب الشجاع ذي العيون السود .

تحتلُّ الجزيرة العربية بمساحاتها الشاسعة الصحراوية ، وسكانها الفريدين حملة الحضارات الكبرى ، ملايين الكيلومترات المربعة ، حيث يجدُ الانسان نفسه وجهاً لوجه امام الطبيعة القاسية التي لا مثيل لها . وهذا الخزان الكبير للقبائل البدوية ، الذي مزّقته الطرقات وخطوط انابيب البترول ، يتحوّل عن المصير الذي أعدّه له ماضيه : اذ ان البلاد قد أصابتها عدوى حضارية ستقضي في ظرف سنوات على طرق الحياة

للعريقة : واهم ما يلفت الانظار في عصرنا الحاضر ، هذا الزوال المتزايد للحياة البدوية التي انبثقت بصورة غريبة من اعماق العصور السحيقة وعايشتها ثم انهارت امام الرونق والبهاء اللذين يرافقان الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة .

ان الانسان الحديث الذي تركز نهائياً في بيئة معينة يتطلع بعين الحسد الى البدو القدماء ؛ وهو كمواطن ثابت يحذرهم لأنه ليس لهم روابط مادية واملاك ثابتة غير منقولة ، ولا اوراق تثبت هوياتهم وعناوينهم ، التي بفضلها يستطيع رجل الشرطة او الجاني ان يهتدي اليهم دائماً . ومع ذلك يجب ان لا يتبادر الى الاذهان ان حياة البداوة لا قواعد لها ولا قوانين . ان اي عالم من علماء الاجتماع يعرف تلك القواعد غير المكتوبة . وهي صارمة جداً : وكل من يخرج عنها من البدو عقابه النفي خارج العشيرة ، والعيش مع الحيوانات او الموت في الصحراء.

ان الجزيرة العربية صحراوية في اكثرها ، وزاوية ضيقة منها كثيفة السكان هي التي صدرت موجات من سكانها الى الشرق الاوسط حتى الى المغرب . انها العربية السعيدة فيما مضى او اليمن اليوم ، بلد الجبال الخضراء والسكان المتحضرين حيث سادت ملكة سبأ . وقد بقيت سراً يكتنفها الغموض . هناك سكان جبليون قليلو الثرثرة ، كان جدودهم قد علّموا العالم الجبر ومزايا القهوة ، وهم يحوّلون بجهد دائب شكل الارض ليسحبوا منها ما يسدّ رمقهم ؛ وقد لقنتهم عزلتهم وصراعهم المستمر ضد الغزاة في تاريخهم الحافل الصمت والحذر . ان «سويسريي» الجزيرة العربية هؤلاء على اتم الاستعداد دائماً لحمل بندقية قديمة وتحطيم رأس اي اجنبي اقلقهم دخوله المريب . ان حذرهم ليس له ما يوازيه سوى روح الضيافة عندهم ، وصلابتهم لا يدانيها سوى تجردهم . لقد نسيهم التاريخ ، وما زالوا كذلك كأنهم ليسوا من ابناء هذا العصر .

ان المدنية الحديثة لا تريد كما يظهر ان يبقى في ارض سكان بدون

آلات ، ينامون بدون خوف على بترولهم غير المستغـــل ، لذلك قفزت فرحاً فوق اسوار المملكة اليمنية العريقة الضائعة بين جبالهـــا ، لتحمل لها بقوة الاكراه والاغواء دولارات وسيارات ، مع الاطباء والخبز اليومي .

كل شيء قد تغير اذن في الجزيرة العربية بطريقة اسرع احياناً من قدرتنا على الادراك . وقد ذكر هاري سان جون فيلبي ، الخبير الكبير في شؤون الجزيرة العربية : « ان الجزيرة العربية الصحراوية قد تغيرت تماماً خلال الاربعين سنة الاخيرة التي عرفتها فيها ، بل أقول في العشر أو الخمس عشرة سنة الاخيرة » . وأنا في كتابي هـــذا وددت أن أعطي ، صورة لهـــذه الجزيرة العربية الجديدة ، وكـــان يجب أن يحمل اسم « العربية الحديثة » ولكن هذه « الجدّة » عابرة ، وهي ليست سوى موجة من موجات بحر « الابدية » وخير أن يبقى اسمه كما وضعته لانه اثبت في وجه الزمن . وأنا اذا حاولت أن أدون أحداث هذه الفترة القصيرة من التاريخ البالغة الاهمية بالنسبة لنا لاننا نحياها ، كان عليّ أن أحذر ، باستمرار ، خطرين هما : الانزلاق وراء الغريب ، وذكرُ أحداث مشكوك في صحتها على العموم .

وبين الاسلوب الروائي ، والسرد الجاف للاحداث ، التزمت الحد الوسط ولم يكن من السهل العثور عليه ، وأنـــا لا أدعي أنني عثرت عليه ولكنني حاولت .

ان الحاضر الرجراج ليس صالحاً لعمل هادىء يقصد به النفع . لقد أردت أن أعرض مؤلفاً متجاوباً مع الحاضر على قدر الامكان وفضلت ألا أستخدم معلومات مشبوهة . وعلى الرغم من الأبحاث والتنقيبـــات الطويلة والتحريات والتدقيق في المعلومات المجموعة ، لا أزهو ولا أعتد اعتداداً فارغاً بل اعتقد أن هذا المؤلف لم يخلُ من الهنات والأخطاء : ولكنني أتمنى مع ذلك أن يكون في مستوى الجهود المتعددة والمساعدات

التي بذلت من أجله .

أود أن أختم هذه المقدمة بأن أعبر عن امتناني وشكري لجميع أولئك الذين ساعدوني وزودوني بالمعلومات منذ سنوات عديدة ، وبصورة خاصة أولئك الذين شجعوني منذ البدء في دراساتي عن بلدان الشرق الأوسط . ولحسن حظي انهم كثر ولا يمكن تسميتهم كلهم . ولذلك لن أسمي أحداً . بل اكتفي بالاشارة الى اعترافي بالفضل لمركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية ، ومركز الدراسات السياسية الخارجية ، وجميع هيئات الأبحاث الفرنسية .

لدى كتابتي هذا المؤلف ، فكرت مراراً متعددة في صديقي بيار ب . محافظ مدينة الجزائر ، اذ لولاه ، ربما لم يخرج هذا الكتاب الى حيز الوجود . فالى جميع أولئك الذين يعتقدون بمستقبل أفضل للعلاقات الفرنسية ـ الاسلامية ، أهدي عملي آملاً الا تهدم السياسة ما يبنيه المفكرون يوماً بعد يوم .

جان جاك بربي

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز شرف
رئيس قسم اللغة العربية
بالمعهد
الإسكندرية

القسم الأول

القراءة العربية

١

إفريقيا الآسيوية

في أقصى الغرب من آسية ، تستحق الوحدة الجغرافية الواضحة التي تشكلها الجزيرة العربية أن نسميها « قارة » انها شبيهة بالمنحرف ، تحيط بها المياه من ثلاث جهات . في الغرب ، يفصلها البحر الأحمر عن افريقية التي لا تزال تربطها بها وليدتها شبه جزيرة سيناء . وخليج عدن ، والمحيط الهندي يغسلان شواطئها الجنوبية . ومن الشرق يحدها الخليج العربي وخليج عمان . ان حدودها الشمالية فقط برية وهي مبهمة وموضع خلاف . تضيع هذه الحدود في صحارى سوريا والعراق .

ووفقاً لما هو متفق عليه عامة تزيد مساحة الجزيرة العربية على ثلاثة ملايين كيلومتر مربع . والقسم الأكبر من هذه المساحة الشاسعة صحراوي الا اننا نجد فيها مساحات موضعية بالغة الخصب . والتقسيم القديم المعروف للجزيرة العربية الذي يجزئها الى أقسام صخرية وصحراوية وسعيدة يجد له ما يبرره على الرغم من أن الجزيرة العربية لا تحوي الا القسمين الأخيرين .

المناطق الطبيعية

من الأوصاف الآسيوية لا تملك الجزيرة العربية سوى الاسم الذي أطلقه عليها الجغرافيون الغافلون . وليس هناك شك في أن هذا القسم من افريقية قد انفصل عن القارة في حقبة جيولوجية حديثة نسبياً . وشبه جزيرة سيناء مع انها مرتبطة سياسياً بمصر ، فهي تشكل جزءاً من هذا التكوين نفسه . وهذا الكيان الجغرافي الذي يتمتع أيضاً بوحدة عنصرية ولغوية ودينية وثقافية يجعل الجزيرة العربية ذات صلة وثيقة بأجزاء افريقية الشرقية التي تقابلها . والشبه الكبير بين الظواهر الطبيعية والمناخية والانسانية والاجتماعية في الجزيرة الصحراوية ومثيلتها في الصحراء الافريقية وبين الجزيرة العربية السعيدة والحبشة يدفعنا الى تسمية هذه المنطقة : « افريقيا الآسيوية » وحفرة البحر الاحمر الكبيرة التي تفصل القارة الافريقية عن طرفها الاسيوي تقسم الصحراء الى قسمين كما يفعل وادي النيل .

وتميل الهضبة العربية الضخمة الى الانحدار من الغرب الى الشرق . وقد نتج عن التشقق في الركيزة الصخرية الغربية ارتفاع جبلي يمتد من الشمال الى الجنوب على طول البحر الاحمر . وهذه السلسلة الجبلية التي ترتفع في الجنوب تترك امامها مكاناً لسهل ساحلي منخفض ، ضيق هو سهل تهامة الذي نادراً ما يتجاوز خمسين كيلو متراً عرضاً ووراءه ترتفع جبال سوداء جرداء ، انها جبال الحجاز التي تخترقها ممرات قليلة تربط بين الساحل والداخل . واذا ما توجهنا جنوباً نحو خليج عدن وجدنا الصخر البركاني قد بدأت تدب فيه الحياة . ففي عسير واليمن بصورة خاصة ، تهطل الامطار بغزارة مما يجعل هذا الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية بلاداً خضراء تحدثت عن خصبها الروايات

والاساطير : ان تنوّع المناخات والاراضي المتراصة المنضدة على غرار المكسيك يتيح التنوع في المزروعات ، ما بين نباتات استوائية ومدارية الى اثمار وخضار المناخات المعتدلة الاوروبية .

على طول خليج عدن والمحيط الهندي ، نجد السهل الساحلي اضيق مما عليه في تهامة على البحر الأحمر . وهو في اقصى الغرب يحاذي المرتفعات الجبلية اليمنية . والى الشرق في حضرموت وعمان يجاوز هضبات كلسية عالية كثيرة التشقق يقوم امامها عادة تلال مكسوة بالغابات : وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية ، ترتفع من جديد سلسلة جبلية على طول خليج عمان وراء ساحل خصب نسبياً . وعلى طول الخليج العربي اخيراً : تمتد المساحات الشاسعة من الرمال والمستنقعات المالحة التي تحتوي في جوفها كما تعلم كميات هائلة من البترول :

أما داخل الجزيرة العربية فهو صحراوي على العموم – صحراوي رملي أو صحراوي حجري : وهناك يلحظ المرء بعض الآثار التي تحمل على الظن ان صحراء العرب نفسها قد عرفت في الماضي السحيق خصباً « نسبياً » . ولا ريب انها منذ مدة طويلة ، او منذ فجر التاريخ لا تصلح للحياة الحضرية الا في الواحات المتعددة المنتشرة في الاحساء ونجد والحجاز . في هذا الاقليم الاخير الفريد بمركزه على طريق القوافل الكبرى ، ولدت المدن الاولى في العربية الوسطى ، وقد كانت هذه في البدء واحات مزدهرة ومحطات تجارية . فجاء الرسول يُعطيها شهرة لا تدانيها شهرة واهمها المدينة المنورة (يثرب) ومكة المكرمة :

وآخر المنحدرات الجبلية في اليمن وعمان ، في الغرب كما في الشرق وكذلك منحدرات الهضاب الكلسية العالية (الجلول) في حضرموت والمهرا ، تضيع كلها في الصحراء الفسيحة غير المحدودة التي تغطي القسم الاكبر من جنوب الجزيرة العربية . وهذه الصحراء بمساحتها الشاسعة لا ماء فيها ولا نبات ولا حياة . وتُدعى في الجنوب الربع

الخالي الذي يشكل بمساحته التي تزيد على المليون كيلومتر مربع ، اكثر المناطق غموضاً واضخم المساحات الرملية اتساعاً في العالم ، وفي الشمال تسمى النفوذ الكبرى وهي صحراء رملية ايضاً تتصل بصحراء سورية ويصل النفوذ الكبرى بالربع الخالي لسانان رمليان متجهان ، هما : النفوذ الصغرى في الغرب والدهناء في الشرق . وهما يحتضنان هضاب نجد ، هذا القلب الصخري للقارة العربية .

وتذكر هذه المسافات الشاسعة من الرمال الحمراء او الحجارة الغبراء — ما عدا الجبال المعتدلة في اليمن وعمان — بالصحراء الافريقية ، هنا وهناك نفس المناظر الطبيعية ونفس الخصائص البشرية. ويذهب التشابه الى أبعد من ذلك بكثير احياناً — التركيب الجيولوجي متقارب بل متماثل :

منذ ابحاث العالم الجيولوجي الاميركي ك. س. تويتشل ، نعلم بان الثلثين الشرقيين من القارة العربية يتألفان من صخور رسوبية لا بد ان تحوي مخزوناً هائلاً من البترول ، وقد اكتشفت كميات كبرى من السائل الثمين منذ سنوات وبدأ استثمارها بصورة خاصة في كل من الاحساء والكويت وقطر والبحرين . وفي اماكن اخرى من الجزيرة اعطى التنقيب المتواصل بنشاط منذ عدة سنوات بعض النتائج المشجعة : وفي عام ١٩٥٨ تأكد لدينا ان اكثر من نصف الاحتياطي العالمي للبترول موجود في جوف الجزيرة العربية . ومع آبار ايران والعراق ترتفع النسبة الى ٦٥ او ٧٠ ٪ من احتياطي العالم :

مهد العرب والاسلام

يسكن السطح القاحل للجزيرة العربية عدد يتراوح بين عشرة واثني عشر مليون نسمة اكثر من نصفهم يتجمعون في « الجمهورية السعيدة القديمة » (عسير واليمن وجزء من محمية عدن) : وعلى الرغم من ان

هؤلاء العرب من السلالة السامية على الغالب ، فما زال هنـــاك بعض العنـــاصر المحلية في الجنوب حيث تضمّ المنـــاطق الساحلية خليطاً من العناصر :

ويقسم العرب ، الذين عرفوا بدقة النسب ، الى فرعـــين كبيرين يرتبطان بجدين شهيرين هما اسماعيل وقحطان : والفرع الاسماعيلي الذي يتفرع منه مضر وربيعة يقطن شمالي الجزيرة ووسطها :

امـــا القحطانيون فوطنهم الاصلي جنوبي غربي الجزيرة (اليمن وحضرموت) حيث تصادفهم على العموم ومنه نزحوا نحو الشمال .

ان القوة الموحدة الكبرى في الجزيرة العربية هي الدين الاسلامي الذي دعا اليه محمد بن عبدالله (صلعم) في الحجـــاز في القرن السادس الميلادي . وقد تمكن الاسلام عبر العصور من توحيد القبائل التي اتخذت العربية لغة لها . ومع ذلك ما زال هناك لهجات متعددة غريبـــة محلية وخاصة في عمان وحضرموت .

واليوم يبدو الامر خلاف ذلك إذ ان الطوائف كثيرة ومتناقضة : ففي الجنوب والوسط نجد السنّة الشافعيين والمالكيين يقاومون بضراوة ضغط حنبلي نجد دعاة الاصلاح الوهابي . وبالاضافة الى هذه الفرق السنية المتنافرة هناك الشيعة من زيديين واسماعيليين في اليمن ، وخوارج وعبيديين في عمان ، وقرامطة في الاحساء .

لقد كانت الجزيرة العربية مهد الاسلام الذي وحدها : ومع ذلك شهدت ولادة اتجاهين متعارضين في الدين هما الزيدية الشيعية الخاصة باليمن التي تنتمي اليها الطبقة الموجهة والعائلة المالكة ، والوهابية الحركة الاصلاحية التي استوحت الشريعة السنية الحنبلية . وهذا المذهب تفسير صارم للدين الاسلامي ، يتسم بالتزمت ويمنع عن كثير من المحرمات . وقد انتشر خارج الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، في الوقت الذي كان اتباعه فيه اقوياء يفرضونه احياناً بقوة السلاح : وهو حالياً

مقتصر على نجد وما زال حتى الآن سلاحاً سياسياً واداة حكم . وبفضل « الاخوان » تمكنت الوهابية من جمع القسم الاكبر من الجزيرة العربية تحت سلطة البيت السعودي . واتباعهـــا الذين يسمون « الموحدين » او يعتبرون انفسهم المسلمين الحقيقيين ، وهم يؤلفون اليوم ايضاً كتائب المؤمنين ، اكبر قوة في المملكة .

التقسيمات السياسية

بسبب الخلافات القديمة القبلية والعائلية والطائفية التي استشرت من جراء ضعف الامبراطورية العثمانية وانحلالهـــا وجدت الجزيرة العربية في القرن العشرين نفسها مقسمة الى عدة كيانات سياسية متنافرة ومتنافسة ، ومنطق الحقائق الاقتصادية الذي لا يقـــاوم ــ الكامن في اكتشاف البترول ــ شجع النزعة الاستقلاليـــة الانفصالية ، كما تشهد بذلك الكويت .

وتقسم الجزيرة العربية الآن سياسياً الى مملكتين عربيتين وعدد كبير من السلطنات والامارات والمشيخات تخضع للنفوذ البريطاني المباشر وغير المباشر . اما المملكتان فهما : العربية السعودية ومساحتها نحو مليونين واربعمائة الف كيلو متر مربع ، واليمن ومساحتها تقارب مئة وخمسة وتسعين الف كيلومتر مربـــع . والقسم الذي سأصفه بـ « البريطاني » للتسهيل يضم عدة وحدات مختلفة النظم هي مستعمرة عدن ومحميات عدن (تضم حضرموت) التي تبلغ مساحتها على الاقل مائتين وتسعين الف كيلو متر مربع . وسلطنة مسقط وعمان بكيلومتراتها المربعة البالغة مائتين وخمسين الفاً وهي مبدئياً مستقلة ، ولكنها عملياً تخضع للحماية البريطانية ، والامارات المختلفة المساحات المسماة « الدول المحمية » عـــلى ساحل القراصنة حيث سبعة شيوخ يتقاسمون نحواً من ثمانين الف كيلومتر مربع ،

وشبه جزيرة قطر ومساحتها عشرون الف كيلومتر مربع ، والكويت ومساحتها ثلاثون الف كيلو متر مربع ، وارخبيل البحرين ومساحته خمسمائة وواحد وخمسين كيلومتراً مربعاً .

ولاتمام هذه اللوحة الفسيفائية لا بد من ذكر المنطقتين المحايدتين اللتين أحدثتا بين المملكة السعودية والعراق من جهـــة ، وبينها وبين الكويت من جهة ثانية . وهذان البلدان الاخيران يتقاسمان السيادة على هذه المناطق الخالية من السكان الحضر .

وقرب السواحل القريبة نجد عدداً كبيراً من الجزر المنتشرة من الشرق والغرب ، أهمها في البحر الاحمر جزر فرزان للمملكة العربية السعودية ، وقمران وبريم لمستعمرة عـــدن البريطانية ، وفي المحيط الهندي جزيرة سوقطرة التابعة لإحدى سلطنات عدن المستقلة ، وجزر كوريا موريا التابعة للمستعمرة ، وجزيرة مزيراح على شاطىء عُمـــان الجنوبي وفيها قاعدة عسكرية بريطانية ، كانت فيما مضى بالغة الاهمية .

وقبل الوصول الى الحالة الراهنة من التجزئة ، كادَ اميرٌ غامض من أواسط نجد ان يوحّد الجزيرة العربية تحت لوائه : انه عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ، الذي أصبح مشهوراً عالمياً باسم ابن سعود . لقد منعه بعد نظره السياسي من مهاجمة أخصام عنيدين كاليمنيين ، الذين كان في امكانه ان يقهرهم ، ولكنه لم يتمكن من فرض سيطرته عليهم . والنفوذ البريطاني منعه كذلك من ابتلاع امارات الخليج العربي ، وضم قوى المهربين وصيادي اللؤلؤ الى امبراطويته . وفي ظرف ربع قرن ، مع ذلك ، استطاع ابن سعود ان يكوّن لنفسه مملكة مترامية الاطراف ، والمراكز القوية المنيعة وحدها هي التي نجت من قبضته وصمدت أمامـــه . والوضع الحاضر للجزيرة العربية اليوم هو نتيجة ما قام به ابن سعود فيها .

٢

ممالك الحق الإلهي

تقوم في الجزيرة العربية مملكتان متفاوتتان من حيث المساحة متفاوتتان من حيث السكان . أولاهما المملكة العربية السعودية التي تشمل ثلاثة أرباع — أو اربعة أخماس كما يقول البعض — مساحة القارة العربية . يحدها من الشمال العراق والاردن ، ومن الغرب البحر الاحمر الذي يفصلها عن مصر والسودان والحبشة ، ومن الجنوب اليمن ومحمية عدن البريطانية ، ومن الشرق أخيراً عمان والخليج العربي والامارات المنتشرة عليه والخاضعة كلها للنفوذ البريطاني . وتميل العربية السعودية الى اعطاء اسمها الى الجزيرة العربية بكاملها التي طمحت الى بسط نفوذها عليها .

وبفضل الحجاز ، يبسط سادة العربية السعودية سيطرتهم الروحية على أكثر من اربعمائة مليون مسلم . اذ انه خمس مرات في اليوم ، يتجه مئات الملايين من المسلمين نحو مكة المكرمة ليصلّوا الى ربهم وفي كل سنة يؤم الأماكن المقدسة في الحجاز مئات الالوف من المؤمنين ، وقد جاؤوا يؤدون فريضة الحج .

ان سدس البشرية على الاقل يعتبرون مركزهم الديني والروحي في

الحجاز الذي تتآكله أشعة الشمس الوهاجة ، والذي قدسه رسول الدين السماوي الموحد الثالث الاسلام .

واذا كان الساحل الغربي ساحل القدسية فان الشاطىء الشرقي على طول الخليج العربي يمكن تسميته شاطىء البترول . وما ذلك لا لأن الكويت في ظل الحماية البريطانية والاحساء المقاطعة السعودية ، تضمان أغزر حقول البترول في العالم ؛ وفي الاحساء السعودي هذا يوجد أكبر إحتياطي بترولي معروف في داخل بلد واحد . والاكتشافات تتوالى .

ولو صرفنا النظر عما يوجد وراء الحدود يمكن اعتبار المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة قطر ورأس الخليج أغنى منطقة بترولية في العالم :

في أقل من عشر سنوات تحولت الاحساء الصحراوية المليئة بالمستنقعات كالكويت الى منطقة صناعية . ان المنظر فيها يتألف اليوم من منشآت بترولية وأنابيب ومحطات ضخ مستودعات تخزين ومصاف . وفي ليل الصحراء الثقيل يتعالى اللهيب البرتقالي من المشاعل المحرقة مع الغازات السامة كأنه نار البنغال الوهمية الغريبة . وحول آبار البترول المستثمرة ، قامت مدنٌ حديثة مزودة بكل الوسائل الحديثة على الطريقة الاميركية . وأخلى رجلُ القوافل البدوي وصديقه العريق الودود الامين الجَمَل المكان للشاحنات والرافعات والدافعات والقاطرات الضخمة التي صُنعت خصيصاً للصحراء ، واقتصر عملها على بعض المهام البسيطة المبهمة . ومحطات القوافل القديمة أصبحت اليوم محطات البنزين وتصليح السيارات ، وتعلّم سكان الصحراء البـــدو كيف يستعملون المفتاح الانجليزي لتصريف المنتجات البترولية :

وبين هاتين المقاطعتين المهمتين ايضاً الحجاز المقدس والاحساء البترولي تبسط نجد ، بلد آل سعود ، هضابها الفسيحة الصخرية التي تتخللها الأودية السحيقة الجافة والواحات المتناثرة : انها محددة من الشمال والجنوب بصحارى رملية شاسعة : النفوذ الكبرى والربع الخالي ، ومن الشرق والغرب تنبسط

أمامها تلال الرمال: النفوذ الصغرى والدهناء . هذا البلد المرتفع اذن هو مقر البدو ومنطلقهم في حلهم وترحالهم .

وهناك مقاطعة رابعة مهمة في هذه الامبراطورية غير المتلاحمة الا وهي عسير ، الواقعة في الجنوب الغربي ، وهي تشابه طبيعياً جارتها اليمن بخصب مرتفعاتها التي تهطل فيها نسبة عالية من الامطار . انها قسم من العربية السعيدة الاسطورية . وتكمل لوحة الفسيفساء السعودية مناطق مختلفة أقل اتساعاً هي ملحقات نجد ، انها على الاخص في الشمال : الجوف والقصير وشمّر ، وفي الجنوب الغربي القسم الاكبر نجران ؛ والصحراء الكبرى في جنوب الجزيرة المعروفة باسم الربع الخالي تُعتبر هي الاخرى في أكثر الاحيان جزءاً من المملكة العربية السعودية .

من هذه المناطق المختلفة ، والقبائل البدوية غير المتلاحمة ، من المدن التجارية والواحات الناشطة، العائشة طوراً في الاستقلال وطوراً في النزاع مع الجيران كوّن عبد العزيز بن سعود الكبير في أقل من ربع قرن مملكة مركزة متلاحمة منيعة . بلى ان المملكة العربية السعودية أكثر من ذلك مدعوة الى لعب دور من الدرجة الاولى في السياسة الدولية ، وقد استجابت لهذه الدعوة على الرغم مما قد يبدو لنا من تأخر مريع في مجالي الاجتماع والاقتصاد .

يقدر عدد سكان المملكة العربية السعودية بخمسة أو ستة ملايين نسمة، أي ما يقارب نصف سكان الجزيرة العربية كلها . ولم يجر فيها أي احصاء رسمي ، ولكن أولي الامر اعتمدوا في تكهنهم على تقدير نسبة البدو بثلث السكان . وهذه الخاصة الاجتماعية هي من أبرز الظواهر الحياتية في هذا البلد وبلدان الجزيرة العربية كلها . وفي الوقت الحاضر ايضاً ، ما زالت المملكةالعربية السعودية موطن الارتحال الكبير ، كبعض اجزاء الصحراء الافريقية . ولكن مع ذلك ، يبدو ان الارتحال الكبير

قد كتب لـــه أن يتلاشى ويزول ، وقد هددتـــه الآلة في الصميم ، وستكون احدى نتائج حضارة القرن العشرين الصناعية زوال الارتحال الكبير الذي ضعفت قيمته كثيراً ؛ وهذا لا يعني مطلقاً أن التقاليـــد والعادات والاعراف والبداوة ستنقطع عن التأثير في حياة الحضر ؛ انها تمثل حقبة كبيرة جداً من تاريخ هذا الشعب وهذه البلاد .

والى جانب الارتحال الكبير يعتبر الدين ظاهرة اجتماعية مهمة أيضاً في العربية السعودية ؛ اذ أن الملايين الستة في العربية السعودية يدينون كلهم بالمذهب السني ، ما عدا ستين الف قرمطي شيعي في الاحساء ؛ ومن بين المذاهب السنية الاربعة تتمتع الحنبلية مع الحنبلية الجديدة اي وهابي نجد بالغلبة . فالمذهب السائد هو الشافعي وفي الحجاز المالكي . امـــا المذهب الرابع الحنفي فهو متمثل قليلا في موانىء البحر الاحمر ببضعة آلاف من الافراد جلهم من الاجانب . هذا وتوجد بعض القبائل المتأخرة — كما يلاحظ كثير من المسافرين — ما زال في بعض عاداتها رواسب من الوثنية وخاصة عند الطرف الشمالي من الصحراء الجنوبيـــة الكبرى . وهؤلاء ، مع ذلك مسلمون صادقون ومؤمنون يقولون بوحدانيـــة الله ورسالة محمد السامية .

وبين البدو اجمالاً ، تكونت ، جماعات الاخوان الشهيرة ؛ هـــذه الجمعية الوهابية التي تُعتبر أكثر من حركة دينية ؛ انهـــا تؤلف جيشاً قوياً مخلصاً للملك ، موزعاً على أكثر من مئة مركز حضري ؛ وهي منتشرة أساساً في نجـــد ؛ وفي حروب ابن سعود ابان تأسيسه لمملكته كان الاخوان يؤلفون جناح المشاة . واليوم ، من جديد ، بعد خسوف طويل ما زالوا أصلب دعامة للبيت السعودي الحاكم بموجب الحق الالهي .

اليمن

اليمن هي المملكة الالهية الثانية ولكنها من نوع آخر تقع في جنوبي غربي الجزيرة العربية ، وحدودها موضحـــة جزئياً ، في الشمال مع العربية السعودية وفي الجنوب مع المحميات البريطانية في عدن . والحدود الوحيدة الثابتة هي تلك القائمة على الشاطيء الغربي الذي تغسله مياه البحر الاحمر . أما شرق اليمن فمتشابك مع الربع الخالي ، في منطقة من الرمال المتحركة ، البحر الصافي (بحر الرمال) . وعدم اتضاح الحدود خاصة في منطقة الجنوب الشرقي حيث تجاور الامامة محمية عدن ، أدى الى خلاف عمره أربعون عاماً يشتد من وقت الى آخر .

في مثل هذه الظروف ، ليس هناك مجال لاعطـــاء رقم دقيق عن مساحة اليمن وقد وزع مندوب اليمن في هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ نشرة تفيد ان مساحة اليمن هي مئة وعشرون الف كيلو متر مربع ، ومراجع أخرى رصينة جداً تعطي أرقاماً تتراوح بين ستين ومئة وخمسة وتسعين الف كيلومتر مربع . وأعتقد اننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الجزء الصحراوي من البلاد ، يمكننا الاحتفاظ بالرقم مئة الف كيلو متر مربع كاتساع « للبلد النافع » .

وفي اليمن كالمكسيك تماماً ثلاث مناطق طبيعية هي الاراضي المنخفضة غير الصحية ذات المناخ الحار في تهامة التي تحاذي البحر الأحمر بعرض لا يزيد على الخمسين كيلومتراً ، والأراضي العالية المؤلفة من الهضاب المرتفعة التي تعلوها قمم يزيد ارتفاعها على ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، والاراضي المتوسطة ، وهي الهضبة الشرقية التي تنخفض ببطء شديد نحو الصحراء .

وتهامة هي منطقة شبه صحراوية تضم بعض المسافات الفائقة الخصب

والمزروعات تأخذ حاجتها للري من مياه الجوف. والمدينة الوحيدة الهامة في هذه المنطقة هي ميناء الحُديدة ، على البحر الاحمر ، مقر حاكم تهامة ، ولي العهد الامير البدر . والى الجنوب منها ميناء « مخا » القديم الذي أعطي اسمه لاقدم قهوة في العالم وقد بقي مهجوراً لمدة طويلة . وفي عام ١٩٥٥ كلفت الحكومة اليمنية باعادة بنائه شركة الباتينيول الفرنسية التي سبق لها وقامت بنشاط ملحوظ في جيبوتي ، فبنت رصيفاً ونظفت الاحواض من الرمال . ومؤخراً طلب الامام من الروس أن يبنوا له مرفأ شمالي الحديدة . وعلى كل حال فان المقصد هو التخلص من ضرورة المرور في عدن الخاضعة للاستعمار البريطاني .

وفي موازاة تهامة تشكل منطقة الهضاب المرتفعة سلسلة يتراوح عرضها بين المئة والمئة والخمسين كيلو متراً ، تتساقط فيها الامطار بكميات فائضة وهذه المنطقة في اليمن هي من أكبر المناطق خصباً وأكثفها سكاناً . والمناخ المعتدل والصحي فيها يفسر كثافة السكان المرتفعة في الريف والمدن على السواء . وفي هذا القسم من البلاد تقوم المدن الكبرى ومن بينها العاصمة القديمة صنعاء ، والعاصمة الحالية تعز ، سعادة مسقط رأس العائلة المالكة ، وزبيد وطن الجبر ، وضمر وابّ .. في هذه المدن بالذات ازدهرت حضارة الجنوب العربي هذه الحضارة الفريدة التي ما زال فنها الهندسي الرائع شاهداً عليها .

أما المنطقة الثالثة والاخيرة من المناطق الطبيعية في اليمن فتتألف من هضبة فسيحة موازية أيضاً لتهامة والسلسلة الجبلية . وهي تبدأ على مسافة مائتين وخمسين كيلو متراً تقريباً من البحر الاحمر ، وعلى ارتفاع يزيد على الفي متر ، ثم تنحدر رويداً رويداً نحو الشرق حتى تضيع بين رمال الربع الخالي . ومناخها المعتدل يجعلها صالحة لزراعة النباتات الاوروبية كافة .

وآخر مدينة يمنية قبل الصحراء هي مأرب ، اكثر المدن شهرة في

المنطقة وربما في كل الجنوب العربي . وهي معروفة بسدها العظيم المنهار الذي يعود تاريخه الى بضعة آلاف من السنين ، وببقايا مدينة قديمة مطمورة يعتقد انها كانت عاصمة مملكة سبأ . في عام ١٩٥١ ، حصل واندل فيليبس ، العالم الاثري الاميركي ، على اذن بالتنقيب عن الآثار ، ولكنه سرعان ما أوقف عمله بسبب تهديدات السكان والسلطات .

واذا اعتقدنا صحة المعلومات المنشورة فالتنقيبات الاولى تدل على ان تاريخ بناء المدينة يعود الى الألف الاول قبل الميلاد . وقد تدل الحفريات فيما لو توبعت ، على أن تاريخ بناء المدينة هو أقدم من ذلك بكثير .

وكان أول أوروبي زار مأرب مسيو ارنود الفرنسي وذلك عام ١٨٤٣ ثم تبعه عام ١٨٦٩ فرنسي آخر هو عالم الآثار جوزف هالفي الذي عاد وفي جعبته أقاصيص مشوقة ؛ وفي عام ١٩٥٢ زارت السيدة « كلودي فايان » مدينة مأرب ، وسدها وآثارها ، ووصفت ذلك في كتابها القيم « طبيبة فرنسية في اليمن » :

يقدر سكان اليمن بنحو خمسة ملايين وهم في أكثريتهم من الحضر والقبائل البدوية النادرة التي تصادف في الشمال الشرقي والشرق ، لا تشترك في الارتحال الكبير .

وكما تدل الآثار الموروثة يمكن القول إن اليمن بلد الحضر منذ القدم ، على عكس وسط الجزيرة العربية تماماً . وإذا أردنا أن نجري مقارنة مع الجزائر نقول ان الجبال اليمنية بالنسبة للعربية الصحراوية هي كالقبيلة بالنسبة للصحراء الكبرى .

وهناك تنوع بين السكان كما هي الحال في المناخ والمناطق الطبيعية . فسهل تهامة الساحلي كان فيما مضى موطن قبائل الزرانيق المحاربة ذات النزعة الاستقلالية التي تحدث عنها جوزف كاسل في روايته « ثروة مربعة » . وهذه المنطقة اليمنية المعروفة بمناخها الرديء لم

تجتذب السكان اليها أبداً فيما بعد عندما استولى سادة اليمن على تهامة . وفيما عدا المدن نجد سكان السهل جلهم من الزنوج الافريقيين المتحدرين من العبيد القدماء او من السدم الخليط . ومن تبقى من الزرانيق خضع لسلطان المنتصرين . ومهما يكن فان سهل تهامة تليل السكان ، وعلى الهضاب المرتفعة في الوسط ، والهضبة الشرقية في الشرق تعيش أكثرية الشعب اليمني .

وكلما ابتعدنا عن الشاطىء واتجهنا نحو المرتفعات يتضح اللون وتدق السمات ويختفي العنصر الزنجي . والجلد الاسود عند سكان الساحل يصبح فائق الصفات عند الاسياد الشرفاء — المعروفين بانهم من سلالة النبي — ولدى العديد من سكان المدن بصورة عامة . وفي ناحية مأرب ومحمية عدن تعيش بعض قبائل البدو الزرق ، الأمر الذي يدفعنا الى تذكر الطوارق المنتشرين في الصحراء الافريقية .

والفوارق الطائفية في اليمن اكثر بروزاً من التنوع العنصري ، ويبدو ان الشافعيين السنة يؤلفون الاكثرية العددية . ومع ذلك ، فالزيديون ، الطائفة الشيعية اليمنية بصورة خاصة ، يحتكرون السلطات جميعها بين ايديهم . والزعماء والقادة ، والحكام وكبار المفوظفين ، وعلى الاخص الملك والاسرة المالكة ينتمون جميعهم الى الزيدية اما الطائفة الاسلامية الثالثة الاسماعيلية الشيعية فلا تضم سوى بضعة آلاف من الافراد وهي تختلف كثيراً عن الزيدية التي نجحت الى حد ما في اقناعها بتبني طريقها .

وحتى عام ١٩٥٠ كان لا يزال يوجد في اليمن أقلية يهودية يزيد عدد أفرادها على الخمسين ألفاً ،ونظامها الخاص كان يجعلها قريبة من

منبوذي الهند . وهي من العنصر نفسه الذي تحدر منه المسلمون ، ولكن الدين كان كافياً لنبذهم ، وقد هاجروا على دفعات كبرى الى فلسطين المحتلة بعد خلق الدولة الدخيلة هناك عـــام ١٩٤٨ حيث يعيشون نفس العيشة السابقة لأن يهود أوروبا الذين قدموا الى اسرائيل يكرهونهم ويحتقرونهم أشد الاحتقار .

٣

الجنوب العربي « البريطاني »

يجب ان أسارع الى القول بأن إلحاق الصفة البريطانيـة ، بالجنوب العربي لا ينطبق كما هي الحال في الملايو « البريطاني » . انه تعبير يُستعمل لوصف منطقة معقدة ما زال النفوذ البريطاني فيها على أشده له الكلمة الاولى .

الى الجنوب من اليمن والربع الخالي ، على طول خليج عـدن والمحيط الهندي ، تسيطر بريطانيا على حزام عريض من الأرض تزيد مساحته على مائتين وتسعين الف كيلو متر مربع اي ما يقارب مساحة الجزائر الشمالية . ان محمية عدن التي تضم المستعمرة الصغيرة التي أعطتها اسمها ، تمتد من باب المندب او باب جهنم حتى رأس « ضربة علي » على حدود ضفار ، احدى مناطق سلطنة عمان . وتقسم محمية عـدن اداريآ الى قسمين غير متساويين ، يتناسبان بدون تدقيق مع الفوارق السلالية والتاريخية والجغرافية .

والمحمية الغربية بسكانها الاربعمائة الف ومساحتها التي تزيد عن مائة

الف كيلو متر مربع ، ذات ارتباط وثيق « بالنواحي التسع » التي فصلت عن اليمن في القرن الثامن عشر . وهي من حيث الشكل الطبيعي والسكان تشبه الاراضي اليمنية المجاورة لها . وتضم ثلاث مناطق مناخية: ساحل شبه صحراوي ، ومنطقة جبلية ذات زراعات في « الجلول » وهضاب مرتفعة تعلوها القمم ، تنحدر نحو الداخل الشمالي – الشرقي في الربع الخالي . وجميعهم يدينون بالمذهب السني الشافعي ، وجلهم من الحضر . أما البدو الرحّل الذين يصادفون في الشمال الشرقي فيتبعون ، على الارجح ، المحمية الشرقية . ان البدو الاحرار المتنقلين ، لم يكترثوا يوماً بالحدود التي تقيمها ادارة اجنبية ، طالما انهم يستطيعون ان يقفزوا فوقها ويتخطوها .

وعلى الرغم من ان المحمية الشرقية اوسع فان سكانها اقل عدداً . انها تغطي مساحة تتراوح بين مئة وثمانين ومائتي الف كيلو متر مربع وسكانها لا يتجاوزون ثلاثمائة وخمسين الف نسمة . وهي مؤلفة من مجموعة حضرموت ، بلاد البخور والتوابل الاسطورية ، ومهرا التي تتعلق بها جزيرة سوقطرة ، والقسم الاكبر من المحمية الشرقية هو صحار وجبال مجدبة تتخللها الاودية . واما المنطقة الساحلية فهي أضيق من تهامة وتحدها السفوح الصخرية لسلسلة ساحلية ، وهي الاخرى ضيقة ومحاذية لهضبة كلسية صحراوية يتراوح ارتفاعها بين خمسمائة والف ومائتي متر . وهذه الهضبة القاحلة تشكل بوادي فسيحة جرداء تتخللها شبكة معقدة من الاودية العميقة . وأعمق هذه الاودية وادي حضرموت ، الظاهرة الجغرافية الأهم في المحمية الشرقية وهو يقسم بعرضه الذي يبلغ عشرة كيلو مترات الهضبة الكلسية الى قسمين على طول مئة كيلو متر بين الصحراء والبحر . وأما الأودية الأخرى فكلها فروع له ، سواء أكانت متجهة نحو المحيط او نحو الصحراء . والحياة الحضرية ليست ممكنة الا في اعماق هذه الاودية ذات الجوانب شبه العامودية .

والخاصة الأخرى ، الجغرافية الكبرى، في حضرموت تكمن في مدنه ذات ناطحات السحاب التي تعود في تاريخها الى ايام الازدهار القديم : ومدن مكلا ، شهر ، سيون ، تريم أو شيبـــام ، أدهشت وأذهلت المسافرين ، حتى الذين اعلموا مسبقاً بها ، وقد صادفوا هذه الهندسة الدقيقة في قلب الصحارى المميتة . هذه المدن الكبرى تشير الى حضارة وطرق حياتية مدنية عريقة وذلك جنباً الى جنب مع حياة بدوية متأخرة اذ ان خارج المدن ما زال القسم الاكبر من السكان يعيش حيـــاة البداوة .

في المدن وعلى الساحل يمكننا ان نميّز بجلاء وجود أقليات افريقية زنجية وعلى الأخص هندية أو « ملقية » . وهذا العنصر الأخير قـــد أدخله الى المنطقة سكان حضرموت أنفسهم الذين يهاجرون منـــذ القرن السادس ، باستمرار الى جزر الهند الشرقية حيث يتزوج بعضهم . اما بدو حضرموت فيختلفون عن الحضريين سكان المدن الجبلية في الغرب أكثر من بدو القسم الشمالي والمتوسط من الجزيرة العربية . انهم ذوو بشرة كالحة السواد دون ان يكون لها اي من الخصائص الزنجيـــة ، يسيرون نصف عراة ، حاسري الرأس ، ويطلون أجسامهم بالنيل، الأمر الذي يسبغ عليهم شكلاً غريباً أزرق قاتماً .

والسكان جميعاً هنا يدينون بالمذهب السني على الطريقة الشافعية . الا ان البدو الرحل قليلاً ما يهتمون بالدين ، من جراء متاعب الحياة القبلية القاسية ، وأنظمة الصحراء الصارمة . والطوائف التي تخالف الاسلام في طريقة تعبدها متعددة ، ويمكننا ان نذكر بصورة خاصة التقديس الذي تحاط به قبور أشخاص اعتبروا قديسين .

وفي هذه المحمية الشرقية من عدن يبدو التفاوت اللغوي « واضحاً» فهناك يتكلم السكان بالاضافة الى اللغة العربية التي تفهم بصعوبة «الملقية» ، والهندوستانية، والسواحلية في العائلات التي أقامت فترة طويلة في اندونيسيا

او في افريقية الشرقيا . وفي مهر ما زالت شائعة اللهجة القديمة للجنوب العربي . اما في جزيرة سوقطرة وجوارهـــا ، فالاثنا عشر الف نسمة الذين يسكنونها بين صيادين وابناء الكهوف ، يتكلمون لهجة خليطة بين المهرية واليمنية ، ولكنهـــا تختلف عن الاثنتين . والجزيرة التي تبلغ مساحتها ما يقرب من خمسة وثلاثين الف كيلومتر مربع ، بقيت بعيدة عن موجات الغزو وتيارات المدنية لصعوبة الوصول اليها بصورة عامة ، ولاستحالته عندما تتعرض للرياح الموسمية .

المستعمرة

لا تزيد مستعمرة عدن من حيث المساحة على ماثتي كيلومتر مربع ، ومع ذلك فهي هامة جداً لأنها قاعدة لاراض فسيحة . وتتألف المستعمرة من مرفأ الصيادين القديم الذي اصبح مدينة ومرفأ آخر له صفة دولية ، ومن شبه جزيرة صغرى ومن حزام من الاراضي الرملية التي تشرف عليها صخور بركانية . ويشكل المجموع ميناءً طبيعياً ممتازاً ، وهو الوحيد على طول ساحل الجنوب الغربي . وقد احتلتها القوات البريطانية عام ١٨٣٩ ، واصبحت عدن مستعمرة تابعة للتاج البريطاني منذ عام ١٩٣٦ والحقت بها جزر قمران وبريم التي تحمي مدخل باب المندب في البحر الاحمر .

وسكان المستعمرة الذين قدر عددهم عام ١٩٥٦ بمائة وخمسين الف نسمة ، هم عرب في اكثريتهم الساحقة بين عدنيين وقادمين من المحمية واليمن . ويوجـــد في المستعمرة اقليات مهمة من الهنود والباكستانيين والصوماليين . وكان غير العرب يشكلون عام ١٩٥٠ عشرين بالمئة من السكان ، ولكن هذه النسبة هبطت كثيراً فيما بعد ، وما زال هبوطها مستمراً لأن الزيادة في السكان تعـــود على العموم ، الى الهجرة اليمنية

الجماعية الى المستعمرة للعمل فيها .

مسقط وعمان

تحتل سلطنة مسقط وعمان بأراضيها الممتدة على شكل هلال الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية كلها وساحلها ينطلق من محمية عدن الشرقية الى شاطىء القراصنة على طول الف وستمائة كيلومتر من الشواطىء التي تغسلها مياه البحر العربي (المحيط الهندي) وخليج عمان . وهي تجاور في الغرب سلطنة مهركشن وسوقطرة ، بأقليم ضفار . وفي الشمال الغربي تتصل بامارات شاطىء القراصنة الصغير ، وشبه جزيرة ماسندام التي تسيطر على مدخل الخليج العربي ، هي خاضعة ايضاً لسيادتها . وفي الداخل تنتهي السلطنة في صحراء الربع الخالي ، عند حدود لم تكن يوماً واضحة . وتقدر مساحة السلطنة بحوالي مائتين واثني عشر الف كيلومتر مربع وسكانها بخمسمائة وخمسين الفاً .

وهي مؤلفة من ساحل ضيق يمتد امام سلسلة جبلية وعرة ممتدة في موازاة خليج عمان ومن الجبل الاخضر الذي يزيد ارتفاعه في احدى قممه المدعوة شام » على ثلاثة آلاف متر . واما في الداخل فينحدر الجبل تدريجياً . نحو الصحراء . وهذا القسم من الجزيرة هو اكثر اقسامها غموضاً » وبين مسقط المرفأ والعاصمة ، وشاطىء القراصنة باتجاه الشمال ، نجد سهل الباطنة الساحلي الذي يضم اجمل بساتين النخيل في العالم ، واخصب منطقة في الجزيرة العربية . وضفار التي تقع في الطرف الثاني من هذه البلاد الطويلة منطقة قليلة السكان ، ما زال ينبت فيها شجر البخور على الطبيعة في تلال منخفضة مسطحة ، وهي الاخرى ينتهي بها المطاف الى الضياع في رمال الصحراء الكبرى . والى الجانب الآخر من خليج عمان في بلوخستان التابعة للباكستان ما زال هناك جيب صغير

يدعى خواضار مساحته ثمانمائة كيلومتر مربع يخضع لسلطان مسقط وهو البقية الباقية من امبراطورية بحرية عريقة :

ان سكان الساحل خليط عجيب من : عرب وباكستانيين ، وايرانيين وزنوج افريقيين ، واما سكان الجبل الاخضر فهم على الاخص من العرب العريقين . والعمانيون جميعهم مسلمون ولكن اغلبيتهم من الخوارج العبيديين المرفوضين حتى من الشيعة . والى هذه الطائفة ذاتها التي خرجت عن المذاهب الاسلامية ينتمي مرابطة الجزائر ، وجربيو تونس، وسكان زنجبار في افريقيا الشرقية .

ان سلطنة مسقط وعمان ذات الكيان غير المحدد مستقلة مبدئياً ونظرياً ولكنها عملياً واقعة تحت الحماية البريطانية :

شاطىء القراصنة

يحمل الشاطىء العربي الذي يمتد صعوداً من شبه جزيرة سندام الى قاعدة شبه جزيرة قطر شمالاً اسم شاطىء القراصنة . ويطلق عليه اسم شاطىء الهدنة او عمان المهادنة :

لقد بقيت هذه المنطقة مدة طويلة مخبأ للقراصنة ، قبل توقيع معاهدة الهدنة العامة التي فرضها الانجليز في القرن التاسع عشر . انها حزام من اراض صحراوية ، خربة قائمـــة تماماً بين عمان وقطر . اما الحدود الداخلية مع الجارة الكبرى ، المملكة العربية السعودية فأنها غير محددة ونجد فيها سبع مشيخات ساحلية تتقاسم السيادة على مساحة قدرها عشرون الف كيلومتر مربع يسكنها حوالى ثمانين الف نسمة . وهذه المشيخات الشارقة ، رأس الخيمة ، ام القوين ، عجمان ، ظبي ، ابو ظبي ، وفجيرة التي اعترف بها عام ١٩٥٢ . والسكان يتجمع جلهم في مرافىء الشاطىء بصورة خاصة ؛ لأنهم من البحارة والى جوارهم يسكن نحو

عشرة آلاف من البدو الرحل . وواحة البريمي التي هي موضع خلاف حاد ، منذ عـــدة سنوات ، بين العربية السعودية من جهة وسلطاني مسقط وابو ظبي ممثلين ببريطانيا من جهة ثانية ، هي المكان الذي يتجمع فيه البدو من كل المناطق المحيطة . وهي ايضاً المكان الوحيد الخصيب: وشاطىء القراصنة ليس سوى امتداد للصحراء الرملية ، تتخلله مستنقعات مالحة ، اكبرها مستنقع « سبخه » الذي يفصل الشاطىء عن العربيـــة السعودية. والحياة في هذه المنطقة تقتصر على الشاطىء وواحة البريمي.

قطـــر

الى الشمال ايضاً تمتد شبه جزيرة تدعى قطر ، وهي امارة في وسط الشاطىء العربي من خليج البصرة . تواجه جهتها الغربية جزر البحرين، وحدودها الداخلية مع العربية السعودية لم تحدد حتى اليوم . ويظن انها تتألف من خط مستقيم وهمي يربط الشاطئين بقاعدة شبه الجزيرة .

تقارب مساحة قطر عشرين الف وسبعمائة وعشرين كيلومتراً مربع من الصحراء المسطحة بدون مياه حلوة ، وبدون نباتات ، شاطىء متعرج صخري وكان ريشارد سنجر على حق عندما وصف قطر بأنها المكان العابس حتى بالنسبة للجزيرة العربية . سكانها نحو خمسة وعشرين الف كلهم صيادو اسماك ولآلىء : ولا مجال هنا للحديث عن الزراعة . ومياه الآبار النادرة الموجودة هناك مالحة. وتعطي بعض الواحات الصغيرة التمور.أ والنباتات النادرة التي تنبت على طول الشاطىء تشكل علفاً زهيداً لحيوانات البدو الرحل . ويمكننا ان نقول ان قطر ، هي اصدق مثل للصحراء الكاملة .

والبترول وحده هو الذي لفت الانظار الى هذه الامارة العربية :

البحرين

بين قطر والاحساء السعودية يحتل ارخبيل البحرين مركزاً رئيسياً في الخليج العربي . واسم البحرين يدل على الجزيرة الكبرى بين الخمس الاخرى التي تصغرها بكثير واثنتان منها فقط يقطنها السكان هما المحرق في الشمال وتتصل بالجزيرة الام برصيف نصف متحـــرك . وسترة في الغرب ، وتقوم عليها احدى اكبر مصافي تكرير البترول في المنطقة . ويبعد الارخبيل حوالي ثلاثين كيلومتراً عن الشاطىء السعودي :

تبلغ مساحة البحرين الاجمالية خمسمئة وواحـــد وخمسين كيلومتراً . أما الجزيرة الكبرى التي تقوم عليها العاصمة المنامة فيبلغ طولهـــا ثلاثين ميلاً من الشمال الى الجنوب وعرضها عشرة أميال من الشرق الى الغرب وعلى العكس من جاراتها تتمتع البحرين بمياه غزيرة في نصفها الشمالي عل الاقل . وينابيعها الطبيعية وبركها المتعددة زادت من قيمتها وجعلت العرب يطلقون عليها منذ اقدم العصور اسم : « لؤلؤة بحر الزمرد » . وكانت الجزيرة مشهورة فيما مضى باللآلىء الشرقية النادرة وقد وصف « البير لوندر » في كتابه « صيادو اللؤلؤ » الظروف التي يتم فيها استخراج هذه الكنوز من مياه الخليج الدافئة .

يناهز سكان البحرين مائة وعشرين الفاً ، سدسهم على الاقل من الاجانب الذين هم ، على الاخص ، ايرانيون وهنود . وستة وتسعون بالمائة من السكان عرب يدينون بالاسلام ولكنهم منقسمون الى سنة وشيعة. وعلى الرغم من ان السنيين اقلية ، فقـــد استطاعوا ان يكونوا اسياد الارخبيل . والاضطرابات والقلاقل بين ابناء الطائفتين ليست نادرة . ومع ذلك ، فان الهيجان والنقمة منذ مدة قصيرة ينصبان على الاجانب أي المستشارين الانجليز والتجار ، الهنـــود والفرس واليهود . وهؤلاء

الاخيرون يهاجرون الى اسرائيل .

الكويت والمنطقة المحايدة

اذا تابعنا سيرنا شمالا نحو رأس الخليج ، نمر بساحـــل الاحساء السعودي ، ثم بساحل القسم الكثيب من المنطقة المحـــايدة حيث يبعث استثمار البترول الحياة نوعاً . وينتهي بنا المطاف الى جون الكويت ، المرفأ الطبيعي الممتاز في المياه العميقة ، الذي كان السبب الرئيسي لتأسيس الامارة . وهي مؤلفة خاصة من مدينة الكويت القائمة على الجهة الجنوبية من الجون وقريتين او ثلاث مجاورة لها . والى الجنوب من المدينة ، يقوم ميناء الاحمدي الذي يعتبر من اكبر الموانىء البترولية على الخليج .

في سنة ١٩٢٢ ــ ١٩٢٣ باشراف الحكومة البريطانية (بروتوكول عقير) عينت حدود الكويت التي تحاذي العراق في الشمال والغرب ، والمملكة العربية السعودية في الجنوب الغربي . امـــا الحدود الجنوبية فتفصل الامارة عن منطقة محايدة حيث شيخ الكويت والملك السعودي يتقاسمان حقوق السيادة في انتظار اتفاق لاحق . وكلاهمـــا تنازل عن حقوقه في المنطقة الى شركات بترولية اميركية متآلفة اكتشفت البترول الذي تستثمره . ويبدو ان التسوية قد ارضت الفرقاء جميعاً .

والكويت صحراء مستوية من الرمال والاملاح ، محرومة تماماً من المياه الحلوة وتبلغ مساحتها حوالي ثلاثين الف كيلو متر مربع . والقسم الاكبر من هذه المساحة غير مأهول وغير صالح للسكن ؛ كان يوجد فيها فيما مضى مـــا بين عشرة وعشرين الف بدوي ، ولكن السكان واكثرهم بحريون ، يتجمعون على الشاطىء وبصورة خاصة في مدينة الكويت .

كان الكويتيون فيما مضى بحارة ، صيادي لؤلؤ ماهرين ، وبنـــاة

مراكب معروفة بشهرتها الفائقة : ومنذ اكتشاف البترول ، ضاعفت هجرة العراقيين وعرب المناطق الاخرى مـــن الخليج سكان الكويت ، ويقدرون اليوم بربع مليون نسمة جميعهم من العرب السنة ، ما عـــدا حوالي الف ايراني اقاموا كتجار في الكويت منذ القرن الثامن عشر .وقد أحدث اكتشاف البترول ثورة في الكويت لا مثيل لها كما سترى في الفصول القادمة :

الخليج العربي

قبل ان نختتم هذا الفصل ، يجدر بنا ان نقول كلمة بشأن فكرة اطلقها السيد « رودريك أون » : لقد نشر الكاتب البريطاني عام ١٩٥٧ كتاباً ممتازاً عن الخليج العربي : وفي مستهله يلفت السيد رودريك انظار قرائه الى ان التسمية الفارسية للخليج بالنسبة للعرب لا وجود لها : لقد كانت هذه المساحات من الرمال والمياه دائماً جزءاً لا يتجزأ من الخليج العربي انني اقر هذا الامر . ولكن ، بما ان الكتاب الغربيين ليسوا من القوميين العرب لذلك احتفظوا بالتسمية الفارسية التي حملها مدة طويلة من تاريخه :

القسم الثاني

العربية السعودية

٤

إمبراطورية آل سعود

منذ عام ١٩٢٧ ، تحت راية المرحوم عبد العزيز بن سعود ، توحد القسم الاكبر من الجزيرة العربية حاملاً اسم : « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » .

وفي عام ١٩٣٢ ، صدر قرار ملكي يعطي لهـذا الكيان السياسي الجديد اسمه الحالي : « المملكة العربية السعودية » . وما زال تنظيم المملكة يحتفظ حتى اليوم بصورته الاصلية المختلفة .

حتى مماته في التاسع من تشرين الثـاني ١٩٥٣ ، كان الملك عبد العزيز بن سعود بمعنى الكلمة يجسد البلد الذي خلقه . لذلك تركت وفاة الملك وراءها لفترة من الوقت ، جواً من القلق والخوف من ان تتغلب القوى الانفصالية على الولاء للأسرة المالكة السعودية . غير ان ابن الملك الكبير ، الأمير سعود ، ولي العهد منذ سنة ١٩٣٣ ، تولى العرش دون أي اعتراض . وتدل اضطرابات اخرى من نوع جديد على يقظة شعبية قريبة بدأت تحدث في المملكة .

وعلى الملك الجديد سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل

آل سعود ، ان يواجه قضايا ومشكلات يتزايد تعقيدها مع الايام ، مشاكل لم تواجه سلفه الا عرضاً . فهناك في الداخل ، تطور البلاد الاجتماعي والاقتصادي ، يسير بخطى حثيثة ، وفي الخارج قضايا العالم الاسلامي والشرق الاوسط ، بدأت تأخذ مع الايام ، شيئاً فشيئاً صفة دولية ، ولا يستطيع سيدُ الاماكن المقدسة ان يبقى غريباً عن هذه القضايا المستحدثة .

ان الاثراء الاصطناعي في بلد كان فيما مضى لا يحسّ بالتطور الاقتصادي الحقيقي والسياسة العربية خاصة ، والاسلامية عامة ، واخيراً « الحياد » ، كل ذلك يضع المملكة العربية السعودية في طليعة بلدان الشرق الاوسط ، والسؤال الذي يثيره هذا البلد في ذهن من يراقب الاوضاع في الشرق الاوسط والاختصاصي في العلاقات الدولية هو معرفة مدى نجاح التجربة السعودية وامكانية استمرارها . ان النظام السعودي تحت ضغط التقدم والثروة لم يتغير الا تغيراً طفيفاً . لقد ظهرت مع ذلك قوى اجتماعية جديدة ولكنها لم تأخذ بعد شكلها وتنظيمها . وسينبئنا ربع القرن المقبل اذا كانت العربية السعودية قادرة على ان تستمر في فرض نفسها كواحدة من كبريات دول الشرق الاوسط العربي والاسلامي واذا كان نظامها الذي جاء بعد عصره ، سيعرف اخيراً كيف يتكيّف تجاوباً مع المتطلبات الحديثة . نرى هل سينتهي المطاف بعمل عبد العزيز ابن سعود الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية الوهابية في القرن التاسع عشر اي بتجزئة جديدة لمملكة متنافرة ، تسارع بعض اقسامها الى العودة الى الفوضى القبلية ؟

انها علامة استفهام يضعها باستمرار هذا البلد الذي تزيد مساحته على مساحة فرنسة بأربعة اضعاف بينما سكانه لا يصلون الى العشر . وفي محاولة فهم التطور ، يجب ان نعرف ، ولو باختصار ، الاسس التي قامت عليها هذه المملكة التي اطلق عليها « روبير مونتاني » اسم « مملكة

الحق الآلهي البدوية » .

الوهابية والامبراطورية الاولى

في اواسط القرن الثامن عشر عصف في قلب الجزيرة العربية تيـــار اصلاحي توحدي سببه الانحلال في الاخلاق والعادات . اذ قام حوالى سنة ١٧٤٥ فقيه حنبلي من قبيلة تميم في نجد يدعى محمد بن عبد الوهاب واخذ يبث دعوته الحماسية من اجل العودة الى الاسلام الحقيقي الحنيف النظيف الطاهر ، كما اراد الرسول : لم يأت محمد بن عبد الوهـــاب بمذهب جديد ، ولكنه دعا الى اتباع التفسير الاصح والانقى لسيرة محمد (صلعم) واحاديثه .

منذ القرن العاشر ، كانت الجزيرة العربيـــة قد عادت الى فوضى الاحزاب والقبائل المتنافسة المتخاصمة المتحاسدة . لذلك لم تُلاقِ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، في البدء اي نجاح . وذهب الجهد الاصلاحي المبذول لتنقية الدين من الادران هدراً ، بل لاقى مقاومة عنيفـــة من اكثرية الامراء البدو الصغار . واخيراً وجد المصلح من يستمع اليه بانتباه ، في شخص شيخ غامض ، رئيس واحة « دارية » قرب الرياض في اواسط نجد . وهذا الشيخ كان جد عبد العزيز بن سعود مؤسس العائلة المالكة الكبيرة . فاقتنع بالدعوة الجديدة وتبناها . وهكذا اعطى محمد بن سعود الحركة الوهابية السيف والقاعدة الزمنية وهما ما كانت تحتاج اليهما لتحقيق انتشارها .

وفي سلسلة من الانتصارات العسكرية نشر عبد العزيز الاول ابن محمد بن سعود الدعوة الاصلاحية في كل الجزيرة العربية وخارجها في سوريا والعراق وحتى في آسيا الوسطى خارج العالم العربي . وبفضل القبائل البدوية المحاربة في اواسط الجزيرة ، تغلغلت الوهابية جنوباً حتى

في عمان ، وغرباً في الحجاز ، وشمالاً في العراق ، وشرقاً في الاحساء ؛ واكمل سعود خلف عبد العزيز انتصارات آبائه واجداده اذ ضم الاماكن المقدسة ، مكة المكرمة والمدينة المنورة الى الامبراطورية السعودية الوهابية.

وهكذا لاقت دعوة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية ، التي حملتها اسلحة آل سعود اتباعاً اكثر . وفي فجر القرن التاسع عشر ، امتدّت الامبراطورية السعودية من البحر الاحمر حتى الخليج العربي ، ومن عمان حتى بلاد ما بين النهرين . وهذا التوسع القوي السريع قد هدد وأخاف الامبراطورية العثمانية التي كان قد دب فيها الضعف والانحلال ، فطلب السلطان العثماني الى عامله في مصر ، محمد علي ، ان يحارب الوهابيين . وبعد عدّة محاولات فاشلة ، نجح محمد علي في دحر جيوش سعود الذي قتل في المعركة . وفي سنة ١٨١٥ ، اعترف خلفه بسيادة الباب العالي ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً . وبسبب حركات القبائل البدوية المستمرة ، اوفد سيد مصر الى الجزيرة العربية افضل جنوده بقيادة ابنه ابراهيم باشا . فغلب الوهابيين وسحقهم وذلك لأن ابراهيم باشا استطاع ان يستميل القبائل الكبرى المعادية لسادة الرياض ، فدحر الجيوش السعودية واحتل بسرعة « داريا » والرياض التي اباحها لجنوده . اما رئيس الاسرة عبد الله بن سعود فقد وقع في الاسر وقطع عنقه . وبعد عدة سنوات ، سحقت حملة ثانية ثورة وهابية جديدة في المهد، واحتلت اليمن في طريقها ، وخربت واحرقت كل ما يقع في متناول يدها قبل انسحابها من الجزيرة عام ١٨٤٠ .

وهكذا اصبحت الامبراطورية السعودية الاولى اثراً بعد عين.

لقد ترك المرتزقة المصريون والاتراك الجزيرة العربية وراءهم خربة ممزقة بين القبائل البدوية المتنازعة . وبعد سنوات طويلة من النزاع المستمر بين الزعماء والمحليين العديدين برز عام ١٨٨٥ ابن رشيد زعيم قبيلة شمّر حليف الاتراك وعدو آل سعود اللدود وانتصر انتصاراً موقتاً .

فدخل ظافراً مدينـــة الرياض ، وبعد سنوات لجأ الشيخ عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى الكويت ، لدى امير صديق ، وهناك عام ١٩٠٠ تنازل الشيخ اللاجيء عن حقوقه الى ابنه الشاب عبد العزيز الثاني .

الامبراطورية الوهابية السعودية الثانية

في سنة ١٩٠٢ ، اندفع الامير عبد العزيز على رأس انصاره في هجوم مفاجيء صاعق على الرياض . وبفضل الحيلة التي حاكها نجح في دخول المدينة بدون مقاومة ، وثبّت اقدامه في عاصمة اجداده . وهناك نظم نفسه وانطلق لاستعادة اراضيه . وبعد الحملات المتتالية ، والحروب المتواصلة التي دامت عدة سنوات ، استطاع الامير الشاب ان يبسط سيطرته على نجـــد ثم على قصيم وشمّر ، اي على اواسط الجزيرة العربية كلها .

وفي عام ١٩١٢ اسس عبد العزيز بن سعود منظمة « الاخوان » الدينية التي اشتهرت في الآفاق. وانتقى افرادها من اكثر القبائل اخلاصاً له ، واقام هؤلاء البدو المتحمسون في مستعمرات زراعية حضرية انشئت لهم خصيصاً في اواسط نجد ، بالقرب من العاصمة.واولى هذه المستعمرات كانت « ارطاوية » الى الجنوب من الرياض . وعلى اكتاف هؤلاء الاخوان الصلب العنيدين ، جنود الايمان المخلصين ، الذين يستوحون في اعمالهم صحابة النبي (صلعم) قامت فتوحات ابن سعود الجديدة، وحتى يومنا هذا ما زال الاخوان درع الامبراطورية الجديدة الذي يصونها من العاديات .

وفي عام ١٩١٣ ، بعد حملة صاعقة ، احتل عبد العزيز بن سعود الاحساء ، دون مقاومة تذكر : وهكذا وصل امير نجد الى الخليج العربي . وكانت بريطانيا ، التي زحزحت تباعاً جميع منافسيهـــا

الاوروبيين ، تعتبر المنطقة كأنها « حدودها الطبيعية » . فأسرعت ترسل الى الرياض ، احد مبعوثيها السياسيين ، النقيب شكسبير بمهمة معينة ، تقضي بدفع عبد العزيز بن سعود الى محاربة اعدائه القدامى ، آل رشيد زعماء شمّر . وكان الانجليز يهدفون من وراء ذلك الى امرين الاول إلهاء السعوديين عن متابعة توسعهم في منطقة الخليج ، والثاني اضعاف قوة الاتراك بمحاربة حلفائهم آل رشيد ، في الوقت الذي اندلعت فيه نيران الحرب العالمية الاولى .

غير ان النقيب شكسبير قتل ، خلال اول معركة خاضها . واستمر عبد العزيز بن سعود في اتمام خطته دون « مستشار » بريطاني . وبعد ان حارب اخصامه التقليديين وانتهى به الامر الى دحرهم والقضاء عليهم قرر قلم الاستخبارات البريطاني والمكتب العربي في القاهرة تحويل الجهود الى الهاشمي حسين ، شريف مكة ، الذي سيصبح خصم آل سعود الاكبر وذلك بناء لتعليمات الكولونيل لورانس الشهير ، الذي ارتكب في هذا الامر غلطة فادحة لم تقدر نتائجها آنذاك . ولولا حقد لورانس على عبد العزيز بن سعود ، لكان تاريخ الشرق الاوسط غير ما هو الآن تماماً . ولكان بترول الجزيرة العربية لبريطانيا بأسره دون ان يصل شيء منه الى الاميركيين ؟

وقد حدثنا لورانس عن عمله في الحجـــاز الى جانب الملك حسين الهاشمي بتفصيل زائد في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » . ولكن هذا العمل على الاخص ، قد لحقه كثير من المبالغة والتحوير عن طريق المعجبين بهذا الرجل الاسطورة المشهور . ولسوء الحظ قـــد أثر تفهمه الخاطىء للأمور تأثيراً بالغاً اكثر الاحيان ، في السياسة البريطانية تجاه العرب ، منذ اربعين عاماً . الامر الذي يكمن على الارجح ، وراء فشل هذه السياسة البريطانية غالباً ، والاحداث والوقائع كذبت كذلك باستمرار ما ذهب اليه لورانس في نظرياته السياسية . وخطأ حدسه بشأن

عبد العزيز بن سعود ، وتفضيل حسين الهاشمي عليه ، اصدق مثل على ما ذهبنا اليه .

لقد فضل لورانس ، اذن ، ان يستخدم شريف مكة لدفع القبائل العربية الى اعلان الثورة على الدولة العثمانية . والاثر الذي تركته ثورة الصحراء – هو ايضاً – موضع شك كشخصية صاحب فكرتهـا . بشأن الحقيقة في هذا المضمار من المفيد ان نذكر هنا رأي خبير فرنسي .ويجب بكل تأكيد ، ان تقاس احداث تلك الفترة في الصحراء العربية ، بمقاييسها الحقيقية كي تنكشف عنها الهالة الاسطورية . وقد كتب الجنرال ادوار برموند قائد البعثة العسكرية الفرنسية الى الجزيرة العربيـة سابقاً كتب عن الثورة العربية يقول :

« نحن نعلم ان الغرض الاساسي من الحرب في الجزيرة العربية انما هو تخريب خط الحجاز الحديدي ، الذي كان الاتراك يدفعون للقبـائل الاموال من اجل حمايته وحراسته ، ان هذا بالضبط هو مـا اسموه « الثورة في الصحراء » ، مع الهالة التي احاطها بها الدجال الذي خدع الرأي العام الاوروبي » .

على الرغم من ان هذا الرأي هو قاس فعلاً فانه يطابق ما نعلمه عن السياسة البريطانية في الجزيرة العربية ، سياسة « التبعية » التي كان على ابن سعود ان ينتظر فترة من الوقت لمقاومتها . وذلك لأن البريطانيين مع مساندتهم لسيد مكة ، حرصوا على توطيد العلاقة مع امير الرياض .

التفوق البريطاني

بينما كان لورانس يساند الملك الهاشمي ويَعِدُه بتاج امبراطورية عربية كبرى ، نزل ، عام ١٩١٧ ، في اواسط الجزيرة ضابط سياسي قادم

من الكويت يدعى هاري سان جون بريدجر فيلبي ، وقد قدر له بعد ان اعلن اسلامه وسمي عبدالله ، ان يلعب مدة ثمانية وثلاثين عاماً دوراً بارزاً في الجزيرة العربية .

في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩١٥ ، كان عبد العزيز قد وقّع مع بريطانيا مساعدة مشابهة لتلك التي ربطت بانجلترا كلاً من البحرين والكويت . وهذا الامر يجهله ، على العموم ، او يغفل عن ذكره الكثيرون من المؤرخين ، انه ليس مشرفاً ، لا للعرب ولا للبريطانيين . اذ انه لقاء مساعدة مالية شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني اعترف سلطان نجد للبريطانيين بحق الاشراف على علاقاته الخارجية . كجميع امراء الخليج والجنوب العربي تعهد عبد العزيز بن سعود بألا يتنازل عن اي شبر من اراضيه في أي حال من الاحوال ، والا يقيم علاقات مع اية دولة الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على ذلك .

وتعهدت بريطانيا من جانبها بحماية ابن سعود ، مهما كانت الظروف من كل اعتداء خارجي . ويروي الجنرال برموند — كما ذكرت التايمز في ذلك الوقت — ان سلطان نجد تلقى في الحقبة بين ١٩١٧ و ١٩٢٤ ، من التاج البريطاني مبلغ ٤٧٧٣١٠ جنيهات استرلينية ذهباً . وكثير من المراقبين قد اعتراهم الذهول بسبب الخداع والمكر البريطانيين اللذين أمنت بريطانيا عن طريقهما جانب الخصمين العربيين الكبيرين حسين وعبد العزيز ، وذلك كي تبقى هي سيدة الموقف ايّاً كان الغالب . ومع ذلك فقد كان هناك تمييز في المعاملة لأن حسين قدر ثمنه بأربعة اضعاف اكثر من الامير البدوي . كان يقبض شهرياً مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني مقابل خمسة الاف فقط لعبد العزيز . وبالاضافة الى ذلك كان يوجد تنافس ما لبث ان تحول الى عداء مستحكم ، بين لورانس وفيلبي اذ ان كلاً منهما كان يدعم اميراً طموحاً ، ويستند الى رؤساء كانت

لهم مراكزهم ووجهات نظرهم الخاصة . (المكتب العربي – المكتب الهندي) .

توحيد الامبراطورية

بينما كانت الحرب العالمية الاولى تنازع في أيامها الاخيرة ، كلف الملك حسين الهاشمي ابنه الامير عبد الله – أمير الاردن وملكها فيما بعد – باسترجاع واحة الخرمة من الوهابيين . فنهض رجال عبد العزيز ابن سعود وفاجأوا في الليل قوات شريف مكة وقضوا عليها ولم ينجُ من ايديهم إلا الامير عبدالله مع حفنة من انصاره . وهكذا بدأت سلسلة المنازعات بين الهاشميين والسعوديين ، هذه المنازعات التي كان لها اثرها الكبير في تاريخ الشرق الاوسط في خلال السنوات الاربعين الاخيرة :

لقد تأثر الشريف حسين من فشل ابنه واستشاط غضباً لما علم بذبح قواته فحاول ان يعوض هـــذه الخسارة بإثارة عسير ضد الوهابيين . وكان ان جهز هؤلاء حملة صاعقة بقيادة الامير فيصل الابن الثاني لعبد العزيز ، وضمت عسير الى امبراطورية آل سعود وذلك عام ١٩١٩ . وقبل ذلك التاريخ بقليل ، كان الامير فيصل آل سعود قد توجه الى لندن حيث خطا في سن الرابعة عشرة ، خطواته الاولى في الدبلوماسية الدولية ، باشراف جون فيلبي . وفي عام ١٩٥٨ صار الامير نفسه ، على رأس وزارة الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية .

ويجب الا ننسى ان موت زعيم آل رشيد عام ١٩٢٠ قد شجع ابن سعود على التخلص نهائياً من خصومه الالداء في اواسط الجزيرة وشمالها وكان آل رشيد قد ضعفوا كثيراً بعد وفاة زعيمهم المحارب القديم اذ تولى امير شاب متردد شؤونهم . وبعد معركة قصيرة وضع السعوديون ايديهم على شمّر ووسعوا رقعة المملكة : ووفقاً لمخطط سياسي سيبقى

اميناً له مدة طويلة ، اظهر ابن سعود شهامة ، تجاه الامراء المغلوبين فتزوج هو وزوج ابناءه من بنات اعدائه القدامى واخواتهم .

واثر ذلك لم يبق من خصم عنيد لامير نجد سوى شريف مكة حسين الهاشمي . ولم يعد ينقص المملكة السعودية سوى الحجاز لاعطائها شكلها الحاضر . ولا ريب ان مرض التعاظم الذي اصيب به شريف مكة قد اتاح للوهابيين سادة الرياض ان يجـــدوا الحجة المقدسة للوصول الى البحر الاحمر .

اثر انهيار الامبراطورية العثمانية وخلع سلطان الاستانة ، فرغ مركز الخلافة الاسلامية . وفي الخـــامس من آذار سنة ١٩٢٤ ، في احتفال رسمي ، اعلن الشريف حسين نفسه خليفة على المسلمين ، على الرغم من معارضة عدد كبير من مستشاريه لمثل هذا التصرف . وقد اثار هذا العمل سخط الوهابيين وزاد القضية تأزماً ان موسم الحج قد قرب ولا بد من ان يذهب « الاخوان الاتقياء » الى مكة الواقعة في مملكة الهاشميين لتأدية الفريضة المقدسة .

وخوفاً من ان تعتبر هذه الرحلة اعترافاً « صريحاً » بخلافة حسين الهاشمي على المسلمين ، منع عبد العزيز بن سعود الحج منعاً باتاً على محاربيه الذين ثارت ثائرتهم ، وبلغت النقمة اشدها في صفوف « الاخوان » . عندئذ جمع ابن سعود رفاق النضال ليشرح لهم انه لا يجد اي ضرر في الهجوم عـــلى مكة وباقي الاماكن المقدسة في الحجاز والاستيلاء عليها ، واعادتها الى الاسلام الصحيح ، أي الى المذهب الصارم الذي دعا اليه محمد بن عبد الوهاب . فاستقبل « الاخوان » التواقون للحرب هذا الاقتراح بحماسة زائدة ، وراحوا دون ابطاء يستعدون لهذا الحج الفريد.

ونتيجة لذلك ، في آب سنة ١٩٢٤ ، وصـــل الحجاج المحاربون الوهابيون الى الطائف جنوب شرقي مكة ، المقر الصيفي للملك . فهرب الحسين الى مكة حيث أسرع في التنازل عن العرش لابنه علي . وبعد

بضعة أيام ، اضطرت القوات الهاشمية الى اخلاء مكة لتدخلها ، دون مقاومة ، قوات ابن سعود الوهابية . وقبل اتمام فريضة الحج نظف الاخوان المدينة المقدسة ، من المذابح العديدة التي تُعطي صبغة وثنية .

خلال هذا الوقت ، بدأت فلول الهاشميين الذين لجأوا الى جدة حول ملكهم المنهار ، تنزح والغصة تأكل القلوب ، عن أرض الحجاز حيث سادت العائلة الشريفة قرابة ثمانية قرون . أما حسين العجوز فقد انسحب بعد قليل من الوقت ، الى قبرص ، في ظل الحماية البريطانية التي كفلت مستقبل ولديه فيصل وعبد الله بتنصيبهما على عرشي العراق والاردن اللذين أوجدا لهذه المناسبة بعد محاولة دمشق التي أحبطها الجنرال غورو .

تنظيم الفتوحات

في فجر سنة ١٩٢٥ ، بعد مرور ثلاث وعشرين سنة على احتلال الرياض ، صار عبد العزيز بن سعود سيد الاراضي الواقعة بين الخليج العربي والبحر الاحمر وبين رمال النفوذ والربع الخالي . وفيما عدا الكتل الجبلية في اليمن وعمان ، والشاطىء الممتد من باب المندب الى قطر ، اصبح الزعيم البدوي يسيطر على اهم ما في الجزيرة العربية . ولكن سلطانه لم يكن قد تركز بعد ، ولذلك تخلى موقتاً عن كل مشروعاته الحربية التوسعية . وفضل ان يصرف كل جهوده في تنظيم فتوحاته . كان مقصده ان يعطي هيكلاً ادارياً لهذه الاراضي المتفاوتة في ظروفها وفي تقاليدها ، وتوحيدها واقرار الامن والسلام فيها . وكان لا بد من هذا العمل ليتم خلق المملكة العربية السعودية .

بعد زوال الهاشميين من الحجاز ، دخل سلطان نجد وملحقاتها الى جده في الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ . واعطى لممثلي الدول الاجنبية ضمانات مطمئنة ، كما تأكد من حسن نواياهم

تجاهه . وبعد بضعة ايام دخل مكـــة حيث اعترف به في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ ، مجمع ضم الاعيان ورجال الدين ، « ملكاً على الحجاز » . وأصبح لقب عبد العزيز بعـــد ذلك « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته » .

كان الملك الجديد يشعر شعوراً مكيناً بمدى التفاوت في التطور بين الحجاز ونجد وباقي المقاطعـــات . وفي الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٢٦ اعلن عبد العزيز قانوناً تنظيمياً سمي « دستور » مملكة الحجاز . وعلى الرغم من انه قد طرأ مراراً تعديل على هذا الدستور الذي ظلت بعض اقسامه حبراً على ورق ، فإنه كان وما زال احـــدى الوسائل الرئيسية التي نظمت بموجبها الدولة السعودية الموحدة . والنص الرئيسي في رأينا هو ذاك الذي جاء في المادة الخامسة التي تعلن :

« ان السلطة الكاملة لمملكة الحجاز هي بين يدي جلالة الملك عبد العزيز الاول بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . يستوحي جلالته ادارتها من الشريعة الاسلامية » .

هذا ويجب ان نلفت الانظار الى انه لا يوجد دستور للمملكة كلها ، لذلك يعتبر دستور الحجاز دستوراً لها كلها . وفي عام ١٩٣٢ اعلن عن قرب سن دستور جديد للمملكة العربية السعودية . ولكن فيما عدا بعض التعديلات التي طرأت على دستور الحجاز ، لم تنشر اية قوانين دستورية إلا نظم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له وقد صدرت في السابع عشر من آذار سنة ١٩٥٤ .

ومنذ وضع عبد العزيز آل سعود يده على الاماكن المقدسة الاسلامية اعترفت الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا به سيداً على هذه الاماكن . وفي التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٧ ، صدرت ارادة ملكية باعلان نجد وملحقاته مملكة وضمها الى الحجاز . ولم تتوان بريطانيا في الاعتراف بالوضع الجديد في معاهدة جدة الموقعة في العشرين

من ايار سنة ١٩٢٧ بينها وبين عبـــد العزيز بن سعود . وقد جاء في المادة الاولى من هذه المعاهدة ما يلي : « ان حكومة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة تعترف باستقلال وسيادة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » وفي المادة السادسة يعترف الملك عبد العزيز بمركز بريطانيا الممتاز في الكويت والبحرين وقطر وشاطىء القراصنة ، متعهداً باحترام هـــذا المركز وابقاء العلاقات الودية المسالمة مع هذه الاقطار .

وبعد ذلك وقعت اتفاقات ملحقة سوّت الامور بشأن الحدود مـــع الجيران الشماليين العراق وشرقي الاردن والكويت الذين كانوا جميعاً لا يزالون تحت الانتداب او في ظل الحماية البريطانية .

لقد كان لمعاهدة جدة اهمية خاصة . ولنا ملء الحق ان نعتقد انها تشكل الصك الرسمي لولادة المملكة العربيـــة السعودية ككائن دولي ودخولها فيما اتفق على تسميته « اسرة الامم » وذلك لأن المعاهـــدة أبطلت مفعول المعاهدة المشينة الموقعة في عام ١٩١٥ وحلت محلها ، مزيلة بذلك روابط التبعية المباشرة لبريطانيا . لقد كانت تلك المعاهدة القديمة تضع عبد العزيز بن سعود في مصاف مشايخ شاطىء القراصنة الصغار المتنازعين ؛ واما المعاهدة الجديدة في جدة فقد رفعت الامير المنفي في الكويت الى مصاف ملك يبسط سلطانه على مملكة مترامية الاطراف .

والجدير بالذكر ان هذا الاتفاق لم يكن من رأي الرعيـــة كلها ومعاهدة جدة اثارت نقمة « الاخوان » الذين غضبوا وثاروا لحرمانهم من احتلال بلاد ما بين النهرين الخضراء الخصبة وذلك فجأة بتوقيع معاهدة مع المارقين . وكثيرون من زعماء الاخوان الكبار تمردوا وأعلنوا العصيان فتعرض عرش ابن سعود الحديث العهد الى تجربة عنيفة قاسية وبين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ اضطر الملك البدوي مرغماً الى ان يحارب المتمردين الذين لم يستطع اقناعهم بالحسنى بصدق نواياه . وبفضل ما تكبده الملك في اخضاع المتمردين برهن عبد العزيز عن صلابته وتمسكه

في المحافظة على ما كافح من اجله طيلة ربع قرن . وبتصفيته ونفيه الزعماء المتمردين اكد الملك سلطانه وسيادته بصورة لا تقبل الشك ؛ وقد كانت هذه التجربة فائقة الاهمية بالنسبة للملك : ولمس سيد الحجاز مكافأته في نهاية عام ١٩٢٩ ، عندما رفعت قنصلية فرنسا في جدة الى رتبة مفوضية . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الدول الاخرى الممثلة في العربية السعودية تحذو حذو فرنسا.

المرحلة النهائية

اتخذ اجراء آخر لتوحيد الامبراطورية السعودية وتدعيمها بعد ثلاث سنوات ففي الثامن عشر من ايلول سنة ١٩٣٢ ، صدرت الارادة الملكية ذات الرقم ٢٧١٦ وجاء في مادتها الاولى :

« يستبدل باسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها اسم المملكة العربية السعودية . ومن الآن فصاعداً يصبح لقبنا « ملك المملكة العربية السعودية » .

واما المواد الثالثة والرابعة والخامسة من المرسوم فتؤكد ان هذا التغيير في الاسم لا يؤثر في شيء في المعاهدات والانظمة المعمول بها ، ولا في انظمة الملحقات . وتعد المادة السادسة بدستور جديد عام ونحن نلاحظ ان شيئاً من هذا القبيل لم يتم .

وعلى الرغم من العرف المتبع الذي اعتبر بموجبه القانون التنظيمي للحجاز دستوراً للمملكة السعودية ، فإن تجزئة المملكة اقليمياً حوفظ عليها مبدئياً بابقاء نيابة الملك في الحجاز ، ولوناً من الوان الاستقلال الذاتي المحلي في المقاطعات الاخرى . ويمتاز الحجاز بادارته المتطورة المنظمة نوعاً ، وذلك يعود الى صفته الدولية التي تقتضي نظماً ادارية كثر تعقيداً .

ويجب مع ذلك ان نتذكر جيداً المادة الخامسة من الدستور الشهير ، اذا كنا نريد ان نفهم حقيقة الاوضاع الداخلية في العربية السعودية اي انه يجب ان نبدأ من فوق : من الملك . والملاحظـــة التي تفرض نفسها بسرعة على الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ، هي حصر السلطات جميعها من حكومية وادارية وقضائية في شخص الملك.

ومهما يكن المستوى والمجال ، لا يمكن اتخاذ اي قرار هام الا بعد الرجوع الى الملك . والتمييز التقليدي بين السلطات الذي اعتادت عليه دول الغرب لا معنى له هنا . وجميع الصلاحيات التشريعية والتنفيذية كل ذلك يقوم باعبائها شخص واحد فرد . وحتى المهام الثانوية في الادارة يشرف عليها الملك اشرافاً مباشراً وفعلياً في اكثر الاحيان : واذا اضفنا الى ذلك ان ملك العربيـــة السعودية هو في نفس الوقت الامام الاعلى للوهابيين ؛ والقاضي الاكبر ، والمفسر الاكبر للشريعة ، نصل الى الاستنتاج التالي الذي يقول بأن مملكة الحق الالهي السعودية الوهابية تشكل اصدق واكمل مثل عن الملكية المطلقة : واليمن وحدها المملكة الاخرى في الجزيرة العربية يمكنها ان تنافس السعودية في مجال النظام الملكي المطلق :

وقد جرت محاولات قبيل موت عبد العزيز ، لاجراء بعض الاصلاحات الجزئيـــة الصغرى من اجل تلطيف الصفة الاستبدادية في نظام الحكم السعودي : ولكن تلك المحاولات بقيت محدودة . وكي نفهم العربية السعودية يجب ان نتذكر السلطة الفردية المطلقة في نظام الحكم :

٥

العربية السعودية في القرن العشرين

الى جانب سلطة الملك غير المحدودة يبدو جهاز التنظيم السياسي الذي يمكننا ان نصفه بأنه قليل الاهمية. واولئك الذين سمحوا لانفسهم بالاعتقاد بأن الملك سعود سيكون اقل استبداداً ، عرفوا بكل بساطة خيبة الأمل الكبرى : ففي عام ١٩٥٨ ، كما هي الحال منذ ثلاثين سنة ، ما زال يدير البلاد سيد العربية السعودية ، ويتصرف بالممتلكات والسكان كأنه يتصرف بأملاكه الشخصية الخاصة .

والملك الحالي سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود المولود عام ١٩٠٢ كان قد عيّن ولياً للعهد عام ١٩٣٣ ليخلف عبد العزيز الكبير بعد ممات هذا الاخير في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ ؛ ويلقب الملك سعود احياناً ابن سعود الثاني ، وهذا امر واضح خطأه : خلال العشرين سنة الاخيرة التي كان فيها رسمياً الشخص الثاني في المملكة ، حاز الابن الاكبر للملك الراحل شيئاً فشيئاً مركزاً ازدادت اهميته مع الايام ، بتوليه قسطاً كبيراً من ادارة الحكومة : وتعلم ، اثناء

ذلك ، مهنة المستقبـــل ، وفي نفس الوقت اعتاد اخوته على احترام سلطته . ويشرح ذلك الاختصاصي في شؤون الجزيرة العربيـــة ، جون فيلبي ، الذي كان صديقاً للملك عبد العزيز وشاهد عيان للتاريخ السعودي اذ يقول : عندما بدأت القوى الجسدية والعقلية للملك الراحل تضعف في السنوات الاخيرة من حياته الحافلة ، تحمل سعود باسم والده ، قسطاً زادت اهميته مع الايام ، من ادارة البلد . وهذا الامر الواقع اصبح قانونيـــاً ، قبيل موت الملك عبد العزيز بأسابيع عندما انشىء مجلس للوزراء مسؤول امام الملك . وهكذا اصبح ولي العهد والقائد العام للقوات المسلحة ، رئيساً للوزراء ، بينما تولى اخوه فيصل وزارة الشؤون الخارجية ونيابة رئاسة الوزارة . وعملياً كانت قد انشئت عدة وزارات خلال مدة ولاية الملك عبد العزيز ولكن بطريقة اعتباطية ، والذين تولوها لم يكونوا سوى مستخدمين مكلفين بتنفيذ قرارات الملك ، وبتقديم مقترحاتهم اليه . ولم يكن هنـــاك ، فيما خلا الملك ، اي جهاز مركزي لتنسيق سياسة المملكة . وقبيل مماته بشهر من الزمن ، في التاسع من تشرين الاول سنة ١٩٥٣ عقـــد الملك عبد العزيز لاول مرة مجلساً للوزراء جعل ابنه الاكبر وولي عهده الامير سعود رئيساً له كما عيّن ابنه الثاني الامير فيصل نائباً لرئيس مجلس الوزراء .

وبعد موت الملك ببضعة اسابيع ، اصبح سعود رئيس الوزراء ، وولي العهد السلطة العليا في المملكة بدوره . وبدت الهيئة الجديدة اي مجلس الوزراء كأنها فقدت وجودها واعتبر المراقبون المأذون لهم ، في تلك الحقبة ، وخاصة جون فيلبي ، تسنم الملك الجديد سدة العرش عودة الى السلطة المطلقة الفردية . ومع ذلك ، خلال الاشهر الاولى لولاية الملك الجديد ، انشئت وزارات جديدة ، هي التعليم ، والزراعة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٩٥٣ ، والتجارة في ١٧ آذار سنة ١٩٥٤ ، كما اعيد تنظيم وزارات اخرى كوزارتي المالية والاقتصاد . واصبح الامير فيصل بدوره

الشخص الثاني في المملكة بعد ان أعلن ولياً للعهد.. ترى هل ادّى ذلك الى تلطيف النظام ؟

وبسبب المضاعفات والتعقيدات الناشئة عن المهام الحكومية ، مال الملك الى التخلص من المهام الثانوية . لذلك وسع مجلس الحجاز الاستشاري ليضم ممثلين عن كل المقاطعات . ومع ذلك بقي الملك المرجع الوحيد لجميع السلطات لا يتخلى عن شيء من سلطاته الا عندما يرى ذلك مفيداً ، والذين يختارهم الملك ويضع ثقته فيهم يكونون مسؤولين امامه، وامامه فقط عن كل عمل يقومون به .

مجلس الوزراء

يجب ان نحذر في سياق هذا الكلام ان نحكم على امور العربية السعودية ، من خلال تجربتنا الغربية فقط لمثل هذه الامور . ان الكلمات هنا لا ترتدي المعنى الذي اعتدناه نحن ان نعطيها اياه في الغرب . اذا تذكرنا ذلك بالنسبة لمجلس الوزراء ، امكننا ان نعتبره خطوة كبرى في طريق التقدم .

بدأت الدورة الرسمية الاولى لمجلس الوزراء في الثامن من آذار سنة ١٩٥٤ . وبعد ايام ، في السادس والعشرين من آذار ، نشرت : « ام القرى » الصحيفة شبه الرسمية ، نص مرسومين ملكيين عن تنظيم مجلس الوزراء والاجهزة التابعة له . وبعد خمسة اشهر في السابع عشر من آب سنة ١٩٥٤ ، صدر قرار اكثر اهمية يكرس التغييرات الجديدة التي حصلت في جهاز البلاد الحكومي . ويقضي بتعيين الامير فيصل ولي العهد ووزير الخارجية ، رئيساً لمجلس الوزراء . وبهذا القرار التاريخي اظهر الملك سعود عن رغبته في الابقاء على مجلس الوزراء ، حتى ولو كان المجلس واعضاؤه قد بقوا بدون سلطات ، وتوجّب عليهم ان

يحصلوا على موافقة الملك على كل عمل يبغون تحقيقه :

ان المراسيم الملكية الصادرة في الثامن عشر من رجب ١٣٧٣ هـ . الموافق للسابع عشر من آذار سنة ١٩٥٤ ، والمنشورة في صحيفة « ام القرى » يجب ان تُعتبر دون أدنى شك ، قوانين دستورية . والاجراءات التي تتخذها هي الاهم لتسيير الدولة منذ دستور ١٩٢٦ والمرسوم الاول ينظم مجلس الوزراء ، بينما يحدد الثاني مهام الاجهزة المرتبطة به :

ويذكر المرسوم الاول ان مجلس الوزراء يتألف من وزراء عاملين ، يعينون بمرسوم ملكي ، ومن مستشارين للعرش يعتبرون عملياً كأعضاء مجلس الوزراء ، ومن كل شخص يعتبره الملك نافعاً للمناقشة . انه اذن نوع من المجالس الحكومية المعينة بكاملها بواسطة الملك دون اي تحديد مسبق . والوزراء مسؤولون امام الملك وأمام مجلس الوزراء . واستقالتهم يجب أن تحظى بموافقة الملك .

ويدير مجلس الوزراء نظرياً سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، وهو مكلف على الاخص بالموافقة على الموازنة والمعاهدات والاتفاقيات الدولية ، والعقود الخاصة بمنح امتيازات أو قروض تزيد قيمتها على ثلاثين مليون ريال سعودي : وهو ايضاً مخوّل بالموافقة على تأليف الشركات المساهمة ، واعطاء ترخيص للعمل في المملكة لشركات اجنبية ، وحل النزاعات التي تكون الدولة طرفاً فيها ، اذا كان موضوع الخلاف تزيد قيمته على خمسين مليون ريال سعودي ، ثم تعيين وعزل كبار الموظفين ، وخلق وظائف جديدة لم يرد ذكرها في الموازنة ، والتوقيع على كل العقود الخاصة بتشغيل الاجانب . وكان يمكن أن تبدو الصلاحيات التي ذكرنا أكثر جدية ورصانة لو أن المادة التالية من المرسوم لم تشترط لتصبح مقررات مجلس الوزراء نافذة ، الموافقة عليها بالأكثرية ، وبحضور ثلثي أعضاء مجلس الوزراء على الأقل ، واقترانها بتوقيع الملك . والمواد الاخرى تقتصر على شرح كيفية عمل الجهاز

روتينياً . اذن لقد بقي الملك ، السلطة التي تعين الوزراء وكل من يراه صالحاً للاشتراك في جلساته ، السلطة الوحيدة التي لها حق اتخـــاذ قرار ووضعه موضع التنفيذ .

والمرسوم الخاص بتنظيم مجلس الوزراء يقول في مادته التاسعة عشرة إن ديواناً سيحـــدث لمعاونة المجلس وهو مؤلف من الاجهزة التاليـــة : أمانة عامة ، ديوان محاسبة ، مكتب فني ، ومحكمة المظالم . وهنـــاك نص آخر يحدد مهام كل من هذه الاجهزة .

أمـــا ديوان المحاسبة فمهمته تدقيق حسابـــات الدولة والتصريح عن صحة المبالغ المسجلة في حساب الداخل والخارج في كل الاجهزة التابعه للدولة ويراقب نشاط هذا الديوان رئيس يحمل اسم المراقب العام، يعينه الملك ويكون مسؤولا امامه . وعلى المراقب العام أن يحرص على الا تتم حركة نقل أموال في صناديق الدولة ، دون أن تكون مسجلة بدقة . وهو مكلف ان يقدم تقريراً سنوياً عن موازنة الدولة ، ومخول أن يقدم اقتراحاته بشأن الشؤون المالية . وقد أدى انشاء هذا الجهاز بعد مرور ستة أشهر فقط الى فتح تحقيق واسع عن الوضع المالي في البلاد وقد تبين بعد ذلك أن وزير المالية كان قد جمع ثروة طائلة اسطورية أدت الى عزله عن منصبه .

وبخصوص الخبراء الفنيين فهم يلحقون بمجلس الوزراء ومسؤولون أمامه . وهم يبدون آراءهم في القضايا التي يعرضها عليهم رئيس الوزراء او الوزير المختص ، كما تقول المادة الخامسة عشرة من المرسوم الملكي وانشاء هذا الجهاز من الخبراء في كل الفروع بات ضرورة ملحة لعدم كفاءة الاشخاص المكلفين بالمهام العليا في الدولة . وديوان المظالم أخيراً هو نوع من الدواوين الادارية . يشرف عليه رئيس يعينه الملك ويكون مسؤولا أمامه . ويتلقى الديوان ويسجل كل شكوى تقدم اليه ، ويجري التحقيق اللازم ، ثم يرفع للملك تقاريره مشفوعة باقتراحـــات عن

الاجراءات التي يراها مناسبة لكل حالة . ولرئيس وأعضـــاء ديوان المظالم سلطة استدعاء الموظفين الذين لهم علاقة بهذه الشكاوى بعد أن يُعلموا الوزير صاحب العلاقة ، بذلك مسبقاً .

ان انشاء الاجهزة التابعة لمجلس الوزراء وعلى الاخص ديوان المحاسبة وديوان المظالم ، بات بالغ الضرورة لفقدان الشعور بالمسؤولية في الحياة العامة . وقد كلفت هذه الاجهزة الجديدة بمراقبة سلوك كبار الموظفين المهملين . ولكن كبار المسؤولين أي الامراء وأشقـــاء الملك بصورة خاصة ، لا تصل اليهم سلطة هذه الاجهزة . ويمكننا أن نرى هنـــا السبب الذي من أجله يصر الملك على أن يشرف شخصياً على الادارة . ولذلك ما زالت فعالية هذه الاجهزة ضعيفة .

الوزارات

وأعضاء الحكومة الذين يجتمعون في مجلس الوزراء هم الذين يتولون الوزارات التالية : الزراعة ، التجارة ، المواصلات ، الدفاع ، التعليم ، المالية والاقتصاد الوطني ، الداخلية والصحة العامة ، والى جانبهم عدد من وزراء الدولة (سبعـــة عام ١٩٥٧) بينهم الشيخ يوسف ياسين وكيـــل وزارة الخارجية . وقد كلف امراء الاسرة المالكـــة تولي شؤون وزارات الداخلية والمواصلات والتعليم والدفـــاع . اما وزارة الخارجية فقد تولاها منذ انشائها ولا يزال الامير فيصل الذي اصبح في عام ١٩٥٤ ولياً للعهد ، بالاضافة الى منصب رئاسة الوزارة . والى كل هذه المهام زيدت مؤخراً مركز نيابة الملك في الحجاز . ويبدو من ذلك أن الملك سعود أراد أن يغدق الألقاب والمناصب على أخ قيـــل إنه طموح وقادر على أن ينازعه العرش .

وهناك عدد من الادارات والاجهزة الوزارية ، تعمل مع ذلك الى

جانب الوزارات الكبرى ؛ وهكذا أنشئت عام ١٩٥٥ وزارة للانبـاء والارشاد القومي ، تقليداً للوزارة المماثلة في مصر .

ومع أن المراكز المهمة قد سلمت الى أشقاء الملك او حلفاء الاسرة المالكة ، فان أهمية هؤلاء الاشخاص قد بقيت محدودة نسبياً حتى أبرزهم الامير فيصل والخبراء الذين وضع الملك ثقته بهم يستحقون اهتمامـاً واعتباراً أرفع . ولذلك نجد ، كما أشار اليه جون فيلبي ، المراسيم المنشورة بعد تولي سعود تحمل توقيع الملك نفسه ولا نعثر إلا على حالـة او اثنتين عهد بهما الى رئيس الوزراء . وعبثاً نحاول اذا فتشنـا على أمر حكومي لا يحمل خاتم الملك ، حتى في حقل الشؤون الخارجيـة ، الوزارة التي كلف مسؤولياتها نظرياً الامير فيصل .

هذا وقد كان التنظيم الملكي السعودي والنتائج المترتبة عليه موضع نقد شديد من قبل جون فيلبي في بداية عهد سعود . اذ خيل للصديق القديم ومستشار الملك الراحل أنه يملك صلاحية نقد نظام الحكم القائم في العربية السعودية . وكنتيجة لموقفه هذا طرد جون فيلبي في السابع عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ من البلد الذي اختاره وطناً له ، بعد اقامة ثماني وثلاثين سنة فيه ؛

اضرار الفساد

تتيح لنا انتقـادات جون فيلبي ان نفهم الصعوبات الفادحة التي تواجهها الحكومة السعودية . ان المملكة العربية السعودية الوهابية ، لم تتوحد الا مؤخراً وقبل أن يقسو عودها حيث الثروة البترولية كأنها حمل جديد ثقيل الوطأة . والتغيير الملكي الذي حصل في تشرين الثاني ١٩٥٣ ترك املاً في التجديد والتطوير ، كان عجز عبد العزيز ومرضه يحولان دون ذلك . وكان جهاز الدولة قد وصل حينذاك الى درجة من

الفساد لم يعد في استطاعة أحد انكارها . وهذا جون فيليبي يصف لنا بالعبارات التالية الاوضاع في السعودية لدى تسنم سعود سدّة العرش :

بدأ الملك الجديد عهده بميزة لم يكن والده الذي شغل بقضايا اخرى في إمكانه ان يستفيد منها . الا وهي معرفة وتجربة كاملتان للعيوب المتفاقمة النقائص التي استشرت في الجهاز الاداري في البلاد بسبب النقصان الفاضح في رجال الاختصاص اذ ان الاختصاصيين الموجودين — لنقل بصراحة — كانوا من مستوى منخفض الى درجة مؤسفة من حيث فهمهم للمسؤليات التي تفرض الايثار والدقة . وهؤلاء اختيروا دون نظام من حثالات النخبة المثقفة « الانتليجانسيا » التي يمكن العالم العربي ان يزوّد العربية السعودية بها ، في الوقت الذي تشعر فيه أنها في امسّ الحاجة لذلك . ويكفي ان نعلم بأن الكثيرين من الموظفين في دوائر الحكومة ، قد بدأوا من لا شيء ليصبحوا فيما بعد من كبار الاثرياء .

« ولم يكن التجار المحليون وحدهم الذين سمح لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في ادارة الشؤون العامة كموظفين ، بل ان الاشخاص الذين اختيروا خصيصاً للخدمات العامة ، لم يجدوا هم الآخرون عقبات تقف في طريق توسيع اعمالهم التجارية الخاصة ، لتحسين اوضاعهم الاقتصادية . والفعالية اذا لم نقل العفّة لا يمكن ان تفتش عنها في نظام يدرس فيه كل عقد بيع أو شراء تحتاجه الحكومة درساً دقيقاً ، ليس من جهة قيمة العروض المقدمة ، بل من وجهة نظر الموظفين الخاصة ، الذين يمكن ان يكونوا وسطاء في هذه العمليات لقاء عمولة من قبل الذي يرسو عليه العقد . »

ويتابع جون فيليبي كلامه فيفضح كيف استشرى الفساد في النظام القائم باستمرار في الادارة الحكومية فيقول :

« قلائل جداً هم الموظفون ، الذين ليس لهم مصلحة ، عن طريق

عمولة او رشوة أو غير ذلك ، في هذه او تلك من الشركات المتعددة المختلفة الجنسيات والمتنافسة اليوم من اجل الحصول على العقود او العروض المقدمة من حكومة العربية السعودية ... »

ثم يتحدث عن العصبية العائلية في السعودية ويقول :

« هناك نقيصة اخرى في النظام القائم ، ناجمة عن ذلك الميل الطبيعي لدى كبار الموظفين لاختيار الجهاز الوظيفي التابع لهم من بين ابنـــاء عائلاتهم واصدقائهم ، وبذلك يخلقون ما يمكن تسميته فريقاً « ماسونياً » يحركه ولاء داخلي يعلو فوق الولاء الاسمى المتوجب نحو الملك والدولة ...

« ... ونقطة اخرى من طراز مشابه قد تكون اهميتها اكبر ، وهي الميل ، الذي كان قد بدأ كبيراً في السنوات الاخيرة من ولاية الملك الراحل عبد العزيز ، الى تعيين أفراد العائلة المالكة في مراكز ادارية ليس عندهم اي استعداد او خبرة لها . وبسبب بقائهم شخصياً في منجى من الانتقاد لصفتهم العائلية ... قد تؤدي اخطاؤهم في الحكم على الامور أو عدم تجاربهم ، الى تحميل العهد والنظام كل ملامة ... »

واخيراً يحذر فيليبي من اختلاس وتبذير اموال الدولة :

« ... اثناء العقد الاخير مثلاً ، لم تنشر الموازنة السنوية سوى ثلاث مرات لاخذ العلم بها ، وفي اية مرة من المرات الثلاث لم تعط الارقام المنشورة الرأي العام فكرة صادقة جلية عن الطريقة التي تم بواسطتها صرف اموال الدولة لصالح البلاد ... »

ويستنتج المستشار السابق للملك عبد العزيز من كل ذلك قوله :

« ... لقد قيل ما فيه الكفاية عن موضوع الفساد الذي يعتبر المشكلة الادارية الرئيسية المعروضة على الملك سعود بالحاح . ويبدو ان الكثيرين من كبار الشخصيات يجهلون مداه ... »

وعلى الرغم من ان الملك سعود بدا كأنه أخـــذ بعين الاعتبار التحذيرات القاسية الموجهة من فيليبي في تشيكلاته الاصلاحية التي اجراها

عام ١٩٥٤ ، فان جوهر الامور لم يتغير . لأنه في سبيل ذلك كان يجب ان تتخذ اجراءات أكثر جذرية وفعالية من تلك التي اكتفى باتخاذها . وينقص الحاكم خاصة ، الجهاز الاختصاصي الرفيع الذي لا يمكن المملكة العربية السعودية ولا الاقطار العربية الاخرى ان تزود به . ازاء هذه الحقائق القاسية الجارحة فضل الملك الطريقة الرجعية ، والخطرة على المدى الطويل ، التي تقضي بأن يستند على القوى المحافظة لسحق كل معارضة .

المقاطعات

لقد سبق ورأينا ان التركيب الاداري الداخلي للدولة السعودية ، ظل محتفظاً بالجذور المتعددة السابقة لبروزها . وفي الواقع لقد اعتاد البعض في اكثر الاحيان ان يقارنوا بين الحجاز وباقي المقاطعات المسماة نجد وملحقاته ، وفي ذلك خطأ فادح لان كل قسم في الامبراطورية ينعم بلون من الاستقلال الذاتي ادارياً . وجميع الدول والامبراطوريات التي قد تجمعت اجزاؤها عن طريق الاحتلال والتوسع هي على غرار ذلك . والحجاز الاكثر تقدماً يقدم اصدق مثل على هذه اللامركزية التي فرضتها الفوارق الاجتماعية والثقافية ، الى جانب اتساع البلاد . وقد لاحظ ك. س. تويتشل ، المهندس الاميركي ، الذي كان وراء اكتشاف ثروات العربية السعودية المعدنية ، ان البلد منظم سياسياً حسب الاقسام الرئيسية الاربعة المتجاوبة مع الممالك التي كانت فيما مضى مستقلة والتي تشكل اليوم المملكة العربية السعودية . ويعتقد هذا المراقب ان « كل قسم سياسي يمكن اعتباره شبيهاً بولاية في الولايات الاميركية المتحدة » الامر الذي لا يبعد كثيراً عن الواقع . والممالك الاربع القديمة التي تشكل المقاطعات اليوم هي : الحجاز ، نجد ، الاحساء ، وعسير .

أكثر من مرة اوضح المسؤولون ان المملكة انمـا تتألف من نيابتين للملك ، وهذا الأمر يمكن اعتباره صحيحاً في عهد الملك عبد العزيز . وفي الحقيقة ان الحجاز وحده يستحق ان نسميه نيابة للملك ، لأن باقي الامبراطورية كان قد قسم الى مقاطعات .

وكانت نيابة ملك الحجاز من نصيب الامير فيصل الذي يديرها مباشرة من عاصمتها مكة المكرمة . والادارة تضم اجهزة الشريعـة والشؤون الداخلية والخارجية والمالية والتعليمية والدفاعية وستة اعيان . وبموجب الحركة الاصلاحية الأخيرة وسع هذا المجلس ليضم عدداً اوفر .

والمدن الكبرى، على الأخص، جدة الميناء الرئيسي والعاصمة الدبلوماسية والمدينة المنورة ، مدينة مقدسة اخرى مزودة بمجلس استشاري . ومجالس النواحي تدير الاقاليم الريفية باشراف رؤساء محليين يساعدهـم بعض الأعيان . ويوجد على العموم تسع عشرة دائرة ، بمـا في ذلك المدن الخمس الهامة : جدة ، المدينة ، مكة ، الطائف ، ينبع . وهذه المدن تتمتع ايضاً بمجالس بلدية . وكل قرية او قبيلة يدير شؤونها مجلس يرئسه شيخ بمعاونة الاعيان ، والمراقبة الدينية صارمة في جميع هذه المجالس .

أما نجد وملحقاته فيدير شؤونه ، على الصعيد العالي ، الملك نفسه من عاصمته الرياض . مع لامركزية افقية وعامودية لا بد منها . وهكذا نجد ، في القصيم وشمّر التي تشكل قلب البادية ادارة مختلفة عن ادارة الاحساء المندفعة في طريق التصنيع ، وعسير أرض المزارعين الجبليين .

ان الاحساء التي اصبحت منطقة بترولية بالغة الاهمية تنعم باستقلال ذاتي واسع في ظل ادارة حاكم عام يختاره الملك مسؤول امامه مباشرة . وعسير الاكثر بعداً تنطبق عليها نفس الحالة ، وهي مقسمة الى ناحيتين :

ان الحالة في الاحساء ، وعسير منوطة بحاكم عام ، والحجاز بنائب ملك ، ونجد تحت اشراف الملك نفسه وهذه كلها وحدات شبه مستقلة

تعتمد في شؤونها العامة (المالية والدفاعية والخارجية ...) على السلطة المركزية في الرياض . وجميع الاقسام الثانوية الاخرى مثل القصيم وشمر في الشمال ، ونجران في الجنوب الغربي ، تتبع هـذه او تلك من المقاطعات الاربع الكبرى . والحكام لهم على العموم سلطة واسعة ، بما في ذلك حق الحياة أو الموت على أتباعهم ، وذلك لأنهم يشكلون عادةً أعلى سلطة قضائية في منطقتهم . وعلى العموم لا يحدُّ سلطتهم الا العلماء الذين يمكنهم في كل وقت ان يعطوا الرأي الاخـير في كل أمر له علاقة بالدين . وليس ذلك بمستغرب في بلد إسلامي ، يشمل الدين فيه جميع حقول الحياة .

البـدو

ان أهم مشكلة داخلية في المملكة السعودية هي سكان الصحراء البدو أو نصف الحضر . ومنذ سنوات قلائل دعي البدو الذين يفتخرون بطريقة حياتهم الحياتية الى تركها ، لأن ابن سعود قد فهم انه لن يتمكن من قبض ناصية الامور في امبراطورية نصف سكانها ينتظمون في حياة قبلية مستقلة ، تخرج عن نطاق الرقابة الصارمة التي تفرضها السلطة المركزية ، وكما فعلت الحكومات الكثيرة الاخرى من وطنية واستعمارية ، قام الملك البدوي بجهـد كبير لتوطين البدو الرحّل في أماكن معينة . وبفضل الحركة الدينية للاخوان نجح في تحضير حوالي الثلث . وبذلك خفف من فداحة المشكلة ، ولكنه لم يحلهـا . واذا كان التحول السريع للبيئة الجغرافية والاجتماعية والطرق الحياتية قد ساعد في الاحساء البترولية من أجل القضاء على « حياة البادية » فان قبائل كبيرة ما زالت حريصة على طرقها الحياتية في أواسط الجزيرة العربية . وما زال هناك دائماً مساحات شاسعة من الصحارى تحت متناول هذه القبائل لترحل فيها من

مكان الى آخر .

ومن أجل حكم هـــذه القبائل احتفظ بالنظام التقليدي وألحق بدائرة الشؤون البدوية . وسلطة الملك ابن سعود على هؤلاء الرعايا المزعجين قامت على أساس « معاملة الزبائن » . وهذه الطريقة التي قلدها البريطانيون في مناطق نفوذهم العربية ، تقضي بأن يوزع باستمرار ، وفي أوقات معينة ، على مشايخ القبائل مبالغ من المال تختلف قيمتها حسب أهميـــة القبيلة من حيث الرجال والجمال والبنادق التي يمكن ان تؤمنها .

ويمكن القول بهذا الخصوص ان أهم عامل مكن العاهل الراحل من السيطرة على هذه القبائل الهائمة كان زواجه « السياسي » وزواج أبنائه . لقد أقدم الملك ابن سعود تباعاً ، ببصيرته النافذة ، على الزواج من اميرات من القبائل الأخرى أو الأكثر ازعاجاً . وتبعه كبار أبنائه في هذا المضمار ، واقتفوا آثاره ، وذلك لدرجة انه في الوقت الحاضر ، يمكننا القول ان العائلة المالكة تمثل شبكة متراصة بين عائلة آل سعود والعائلات الكبرى الاخرى أو القبائل البدوية . والخصوم القدماء بصورة خاصة آل رشيد زعماء شمر ، يأخذون قسطاً وافراً من مصالح العائلة المشتركة . وغني عن البيان انه في نظام كهذا لا يمكن ان ينتج سوى خضوع البدو للعهد القائم دون قيد أو شرط ، اذ ان كل قبيلة أصبح لها أبناء أو احفاد أنجبها بناتها من أبناء وأخوة وابناء اخوة الملك . وبين هؤلاء البدو الذين يشكلون أصلب أساس للمملكة وأمتنه يحتل الاخوان المركز الاول .

الاخوان والمعارضة

تأسست منظمة الاخوان الدينية المحاربة ، عام ١٩١٢ ، من أجل تعبئة وتحضير جماعات من البدو وينتسبون الى قبائل مختلفة ، لا يجمعهم

سوى اعتناقهم لمذهب واحد هو المذهب الوهابي . وفي مستعمراتهم التي يزيد عددها اليوم على المائة ، يتعاطى الاخوان أعمال الزراعة وتربية المواشي . وقد قُدمت أخصب أراضي نجد مع مساعدات مالية تغريهم بالعزوف نهائياً عن حياة البداوة والارتحال . وتتجمع مراكزهم الكبرى المهمة ، بصورة خاصة ، حول مهد العائلة المالكة في نجد ، وفي داخل الاحساء . وقد رأينا ان الدور الذي لعبه الاخوان في بناء المملكة السعودية كان كبيراً وبالغ الاهمية . ولكن فيما بعد ، اضطر الملك بسبب تعصبهم الشديد الى التخفيف من نفوذهم .

وفي عام ١٩٥٥ ثم في عام ١٩٥٦ ، على أثر الاضطرابات التي تلتها في الاحساء ، منشورات واعتقالات في الحجاز لانّ الملكُ من جديد في معاملته للاخوان وعاد ومنح بعض السلطات للقوات المؤلفة من مستعمرات الاخوان . ووفقاً لما يرويه فنسان مونتاي ، سمح لدورياتهم من جديد ان تعاقب اولئك الذين لا يتقيدون بالاوامر الدينية . واخذوا يفرضون سلطاتهم المفرطة ، ولكنها سلطـــة تفرض خاصة على رعايا حياتهم واملاكهم هي على كل حال منذ البدء تحت رحمة حاكم أو امير ، أو حتى أي مندوب عن السلطة الملكية .

ان نهضة « الاخوان » الاخيرة هـــذه بالغة الخطورة لأن هؤلاء المحاربين الوهابيين المتعصبين قد عارضوا دائماً بشدة ادخـــال التكنيك الغربي الى المملكة ، وكل تقدم يبدو في نظرهم مفسداً . لذلك كان على الملك ان يحافظ باستمرار على التوازن الدقيق بين مطالب رعاياه الرجعيين المخلصين ، وبين آمال اولئك الذين يناصرون التقدم ويعلنون عن استعدادهم في نفس الوقت للتخلص من الملكية المطلقة . ان منظمة الاخوان أداة مفيدة وخطرة في الوقت ذاته ولا يستطيع العهد ان يستخدمها إلا مقابل تضحيات كبرى . وفي منشور خاص صادر في عام ١٩٥٧ ورد فيه قول هام مدعوم بالمستندات بعنوان « الاخوان ضد الجيش »

وفيه نقرأ ان العاهل السعودي يتحفظ كثيراً في خلق جيش نظامي كبير ويفضل ان يصرف أمواله وجهوده وعنايته على القوات البدوية ، ويصف المنشور ان منظمة الاخوان ما زالت الأداة الحقيقية والأساسية الكامنة وراء قوة النظام واستمراره بفضل ميزتها الدينية المتزمتة وولائها للعائلة المالكة . وكي نكوّن فكرة عملية عن منظمة الاخوان يجب ان نعلم ان في إمكانها ان تجمع في بضع ساعات فقط مئة الف بندقية ، وربما ضعف هـذا العدد . وما على « الضباط الفتيان » في الجيش النظامي إلا ان يتحملوا ويصبروا حتى يمن الله بالفرج .

ولكن ما دام التفكك الاخلاقي مستمراً ، الامر الذي كشفه ، بصورة خاصة ، جون فيلبي ، فان السلطات الزاجرة المفرطة الممنوحة للاخوان قد تصبح خطرة ، حتى على أفراد العائلة المالكة أنفسهم ، وعلى اعضاء الحكومة وعلى العهد والنظام . وما زلنا في الحقيقة بعيدين عن التفسير الصحيح الذي أعطاه محمد بن عبدالوهاب للاسلام ، عندما نرى أخوة الملك يجمعون اصدقائهم في حفلات أنس وشراب .

ان الثورة والتقدم المادي الذي سببته يهددان في الصميم نظام الحق الالهي الوهابي . وقد لاحظ الجنرال برموند منذ عشرين سنة ان النظام ما زال قائماً بصورة خاصة ، بفضل مواهب الرئيس الذي يديره . وليس هناك أي فضل للمؤسسات والعادات الراهنة ، بل في الواقع ، ان المؤسسات والعادات تسير على الارجح في اتجاه معاكس للوحدة . لقد لحق عبدالعزيز بن سعود بأسلافه منذ اربع سنوات ، وقد تم الانتقال من عهد الى عهد بدون حوادث ، والاضطرابات التي حصلت فيما بعد قمعت بشدة وبقسوة ، وعناصر الفوضى طردت من البـلاد ونفيت ، والقوى الهدامة روقبت مراقبة صارمة وضيق عليها الخناق . ولكن هل يمكن ان يستمر ذلك ؟

ان التخمين يحمل معه الكثير من المخاطر ، ويمكننا ان نشير الى

وجود معارضة داخلية تجمعت عناصرها لديها من مصادر مختلفة : ويؤكد وجودها طرد الرعايا الفلسطينيين من حين الى آخر بصورة خاصة. وسنة ١٩٥٥ عقبت اضراب عمال البترول سلسلة من الاعتقالات واعمال النفي خارج الحدود ، وبعد وقت قليل ، تألفت في دمشق « الجمعية السعودية للاصلاح الوطني » ونشرت في السادس من تموز سنة ١٩٥٥، في احدى الصحف السورية ، لائحة تتضمن مطالبها : وقد وجهت من خلال ذلك تهمة للملك تقول بأنه « يخنق الحريات ويبذر اموال الدولة ، ويحرص على ابقاء الشعب يقاسي الوان البؤس والشقاء والجوع والجهل » وطالبت الجمعية باعلان دستور للبلاد واطلاق سراح المعتقلين السياسيين .

هذا وقد حصلت اضرابات اعم ومظاهرات افدح ، من جديد في الاحساء عام ١٩٥٦ . وكانت عمليات القمع اشد واقسى : وفي هذه المرة منع الملك منعاً باتاً الاضراب مهدداً باقصى العقوبات كل من تسوّل له نفسه ان لا يتقيد بهذا المنع .

التقدم ضد البدو الرحّل

في هذا البلد العريق لا يمكن الا ان يكون لادخال التكنيك الحديث نتائج مضرة : وليس من المعقول ان يجري القفز عشرة قرون من الزمن دون ضرر لدى بدو هم خلايا حيوية في جسم اجتماعي: والمقارنة السهلة الغريبة بين الجمل والانابيب (وسيلتان للنقل عبر الصحراء) تفسح المكان امام حقيقة مرّة هي ان البدوي لا بد سائر نحو خسران قوته وسبب الحياة نفسه : والشؤم يكمن في سرعة التطور نفسها .

وقد كتب روبير مونتاي بجلاء ووضوح في اول كتابه الرائع الذي

خصصه للرعاة البدو يقول : « لنسرع ونراقب اليوم ، وجود القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء . انها منذ اليوم مهددة ، ان لم يكن بالزوال ، فعلى الاقل بضعف مخيف ، من جراء تقدم الحضارة الصناعية التي باتت تنتشر حتى في الصحارى والقفـــار . لان السيارة والطائرة ، وحافرة البترول ، والانابيب ، تغير كل يوم ملامح الصحراء وتحمل اليها حياة غريبة عنها» . واود ان استشهد مرة اخرى بهذا البدوي المتصنع سان جون فيليبي الذي كتب بحنين ظاهر ، اثر عودته من رحلته الاخيرة ، «لقد اتاح لنا الحظ ان ندرس عن كثب وفي احسن الظروف ، شعباً بدوياً في طريق الزوال بسبب التغيير الذي لا مفرّ منه في حيـــاته العشائرية التي سيحولها الى نوع من ظلال وشبح . لقد اجتزنا خمسة آلاف كيلومتر في الصحراء ، دون ان نستخدم ، خلال كل ذلك ، اية وسيلة للنقل أقدم من السيارة او الطائرة . »

اننا اليوم نجد كثيراً من المدافعين البسطاء يتحمسون ليعلنوا اعجابهم بنتائج اللقاء بين الحضارة التكنيكية الغربية وبين الحياة البدوية في قلب الجزيرة العربية. وهؤلاء خاصة هم من الكتاب الاميركيين الذين تربطهم علاقات وثيقة بالشركات البترولية لا تخفى على احد . اما المراقبـــون الرصينون فقد فضلوا ان يدقوا ناقوس الخطر امام هذه التطورات القاسية والقسرية في التركيب الاجتماعي والاقتصادي لدى البدو ، وازاء هذا التحدي الفاضح على ما هو وقف عليهم . ليس المقصود بقولي هذا ان ارثي بحزن زوال البداوة التي هي اسطورة اكثر منها حقيقة . بل ارى لزاماً عليّ ان اشير الى الانقلابات الحتمية الفائقة السرعة التي تقتلع جذور شعوب عشائرية العقلية ، واذكر انها تُعد بسرعة متزايدة مع الايام ، الخميرة التي ستقوم بثورات المستقبل . والذي يقلق الخواطر ليس تطور البدو على كل حال وانتقالهم من البداوة الى الحضارة ، بل كون هذا

التغيير المصطنع يقـــوم على ثروة قد تكون موقتة مع العلم ان الحاجات التي ستنشأ عن التطور لن يكون مجال للتهرب منها .

هنا تكمن عقدة المشكلة : ان المشكلة الاساسية في الصحراء العربية ان تطوراً اجتماعيـــاً سريعاً يحدث ويستمر دون ان يكون له اسس اقتصادية متينة .

٦

الثورة الاقتصادية في الصحراء

ان خطر اختـــلال التوازن بين الوضعين الاجتماعي والاقتصادي في التطور السعودي يهدد ببلوغ اقصى درجاته عندما يتمكّن التقدم التكنيكي في مختلف اشكاله بفضل وسائل النقل الميكانيكية من ان ينزع نهائياً من رجال القوافل البدو وسيلة معيشتهم الرئيسية . ان الجمل اليوم لم يعـــد يُستخدم في المسافات الطويلة : وهذا الاساس الذي قامت عليه منذ اقدم العصور حياة البداوة والارتحال الكبير الذي سمي « سفينة الصحراء » سيسبب زواله الانهيار الاكيد للمجتمع البدوي باكمله ، وعندما يتحقق هذا الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي ، ترى هل سيستطيع البدو ان يعتادوا ويؤمنوا موارد رزقهم من الزراعة والصناعة المحليتين ؟ ان الطبيعة الصحراوية السائدة تحول دون تحقيق تقدم زراعي كاف لاعالة السكان حتى لو كانوا قليلي العدد . وفيما عدا البترول الغزير يمكن القول ان العربية السعودية محرومة من الثروات المعدنية الصناعية ، حرماناً شبه تام؛ في هذه الظروف تزداد مشكلة اعالة سكان الصحراء الذين فكك